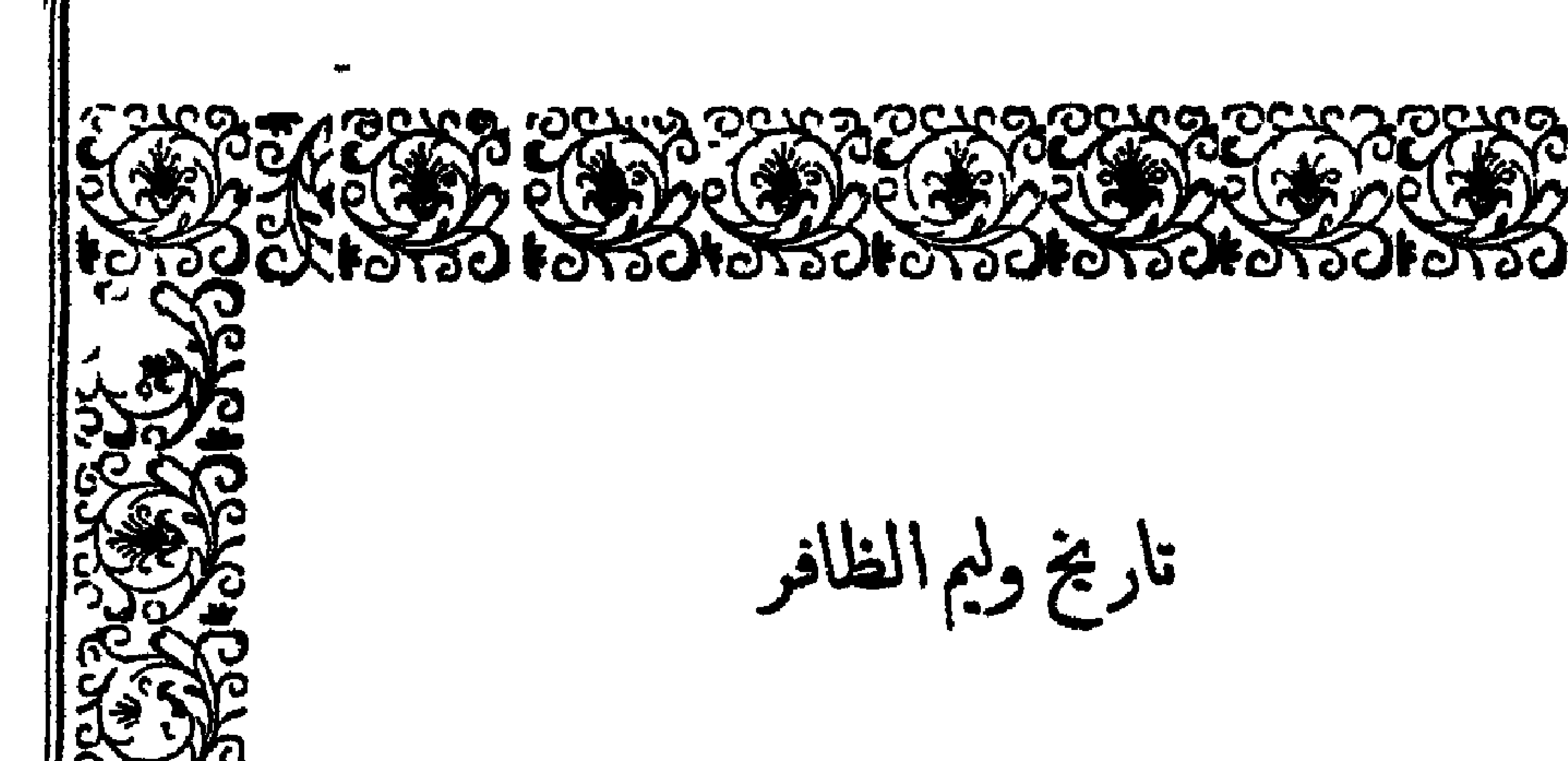
تاريخ

وليم الظافر

بقلم

جناب الاديب اسعد افندي داغر

طبع في بيروت بالمطبعة اللبنانية سنة ١٨٨٧



تاريخ وليم الظافر

الحمد لله الذي ليس لسوابغهِ حصرٌ ولا لسوابغهِ عد . كما أنهُ ليس لهُ بداءةٌ فتؤرَّخ ولا نهايةٌ فيوضع لها حد .

اما بعد فلما كان فنُّ التاريخ من اجل المنافع للانسان . وافضل الذرائع لتدرّجهِ في مرقاة الحضارة والعمران . لانهُ مشكاة تنقشع لديها دياجير القدمية عن محيا الحوادث في غابر القرون والاجيال . ومرآة تنطبع عليها تصاوير الوقائع الماضية كأنها في زمان الحال . فتمرح في جناتهِ ضوامر النواظر . وتسرح في فلواتهِ غزلان الخواطر . لاجتناء يانع الفضائل من اجارع المهيدات المرتادات . واجتناب فواتح الرذائل من صوادع المنذرات الموعدات . ولما كان تاريخ وليم الظافر . الملقب بالقاهر . من اجلها نفعاً . واعظمها في النفوس وقعاً . رأيت ان ألمّ بهِ بعض الالمام . افادةً للقرّاء ا

ان الشهرة التي حازها هذا البطل المقدام . والاسد الضرغام . كانت بافتتاحهِ بلاد الانكليز عنوة واستيلائهِ على مقاطعاتها واستوائهِ على عرش ملكها وهذا كلهُ يعرف في التاريخ بغلبة النورمان — سكان نورماندي — الذين منهم وليم الظافر

على ان الاسباب التي مهدت سبيل الجلوس على العرش الانكليزي لم تكن مجرد القوة الحربية

فقط لانهُ كان لهُ في العرش حق ادعاه على ملكها وحمل عليهِ طالباً
ان شاء الله

الفصل الاول

نورماندي

ان نورماندي وطن وليم الظافر هي مقاطعة في غاية الخصب والجمال . موقعها الجغرافي في شمال فرنسا على ملاصقة المضيق الانكليزي ومساحة عرض هذا المضيق نحو مائة ميل واما تخمهُ الجنوبي الذي منهُ القسم الشمالي من نورماندي فمؤلف من سلسلة هضاب قائمة تجاه البحر تخرقها مصاب انهر تجري من داخل البلاد وتصب في تلك الثغور التي كانت تصلح ان تكون مرافئ تلتجئ اليها السفن لولا ان الرياح الشمالية الغربية يكثر هبوبها عليها بعنف شديد فتثير الامواج متلاطمة وتغادرها مضاحل(١) بما تجرهُ اليها من الرمال والحصى والاخشاب المتكسرة وبعكس ذلك تخمهُ الشمالي من جهة بلاد الانكليز فان المرافئ هناك رحبة سهلة المدخل امينة تقي المراكب من الرياح والانواء ولهذا الاختلاف الطبيعي في جانبي هذا المضيق تأثير عظيم يظهر بالنظر الى سكان الجانب الواحد منهُ فانهم وان يكونوا هم وسكان الجانب الاخر من اصل واحد وجنس واحد فهم على اختلاف من القوة والاقدام على المخاطر والاسفار البحرية

اما وحدة النسل في هذين الشعبين اعني الانكليز وسكان شمالي فرنسا فهي لان هذين المكانين اخضعا لجيل من الناس يدعون سكان نافيين وهم اخلاط من النروجيين والدنماركيين وغيرهم من بلدان البلتيك وقد لقبوا حينئذٍ بالشماليين والذين حلوا بلاد الانكليز دعوا دانيين (نسبة الى دانمارك) مع انهُ لم يكن منهم في الحقيقة من بلاد الدنمارك الا الجزء القليل فقط . على انهم تسلسلوا من اصلٍ واحدٍ ونالوا وحدة الصفات من حيث الشجاعة وشدة الباس والجراءة على ارتكاب المخاطر وهذا كلهُ لايزال اخلافهم يمتازون بهِ في العصر الحاضر

اولئك خرجوا في تلك الايام جمهوراً عظيماً على عمارات قرصانية ومخروا في عرض الاوقيانوس الجرماني الى الابحر البريطانية يقتحمون المصاعب ويركبون الاخطار استكشافاً

(١) جمع مضحل وهو المكان الذي فيهِ الماء قليل الغور

لارض جديدة ذات خصب وكلاء ليحلوها وكانوا في غضون ذلك يظهرون ذات القوة والشجاعة ويكابدون عين هذه الاهوال في صيد حيتان المحيط الباسيفيكي والحمل على بلاد الهند واغتنام كنوز غناها والتبجح بنعيم ثروتها ومثل ذلك ايضاً في الاندفاع للدوران حول نصف الكرة لاستخراج الذهب من كاليفورنيا . أجل ان الزمان تغير والاحوال استحالت ولكنّ النوع باق كما كان والروح هي هي من عهد النشاة وستظلّ كذلك الى اخر الزمان

اما اسم المقاطعة نورماندي فماخوذ من النورمان (اي الشماليين) الذين اغتصبوها من الافرنس فانهم دخلوها من البحر على نهر السين الذي يجري من داخل البلاد كما يرى على الخارطة ومخروا فيه بمراكبهم حتى استقرت اقدامهم في قلب تلك المقاطعة وكان حلولهم فيها بضعة اجيال قبل ابتداء تاريخنا هذا وقد تولى ادارة الحكم فيها سلسلة من الامراء كانوا سلاطين مطلقي الارادة الاّ قليلاً ودعوا امراء (دوكات) نورماندي

فالامير الاول الواضع اساسها . والرافع نبراسها مقدام الغاره . في الاستيلاء على هذه الامارة . كان بطلاً من الشمال مغوارا . وفارساً بين الرجال كرارًا . عريقًا بالبربرية ولصيقًا بجانب الوحشية يدعى «رولو» وكثيرًا ما يلقب في التاريخ برولو الداني (الدانماركي)

هذا نشأ في روج واستلم زمام القيادة بالارث ولما شبّ وبلغ اشدّه وشبّ معهُ حبّ الغزوات والفتوحات جمع اليه عصابة من الرجال الاشدّاء وخرج بهم للقرصانية واللصوصية حتى روّع البلاد . وهلع قلوب العباد . فجلاه الملك الى خارج المملكة

على ان هذا الجلاء لم يكن ليثني عزمهُ عن اجتراح هذه الكبائر والجرائم بل زاده اقدامًا وتنشيطًا فجمع اليهِ كل قواته وانطلق بعمارة يمخر في الاوقيانوس الجرماني نحو شواطىء بريطانيا وكان في ذلك الوقت في جوار تخم اسكوتلاندا الشمالي الغربي سلسلة جزر موحشة كانت ملجاء للقرصان واللصوص فجعلها رولو مقرًا له حيث انضمّ اليهِ فيها عصابة اخرى من الاشقياء الذين بعضهم هربوا اليها من طائلة ما كان لهم في اثارة الشغب والفتن والبعض الاخر في تبعة ارتكاب المعاصي واجتراح المحارم

اولئك مالوا اليهِ لما انسوا فيهِ من شدة الباس والشجاعة وتالبوا حولهُ واجمعوا على جعلهِ قائدًا عليهم . اما هو فلما راى ازدياد قوتهِ عقد النية على حشد جيش جرّار والاقلاع نحو الجنوب . لعلهم يدفعون الى بلاد طيبة الارض خصبتها فيغتصبوها ويستعمروها

فوافقوه على رايهِ واعدوا الزاد والمهمات واقلعوا لا ينحون مكانًا مخصوصًا بل يسيرون الى حيث يجدون موضعًا يناسبهم للاستيطان فيلقون فيهِ عصا الرحيل . ويتخذونهُ محلا للمقيل

فدخل نهر السين حائرًا خائفًا من قوة العدو البحرية هناك على انهُ حالاً راى امكان تغلبهِ على هذه الصعوبة اذ قد اسعده الحظ بعدم وجود قوة كافية للعدو لتصدهُ فاجتاز حتى جاء روان . فبلغ ذلك شارل ملك فرانسا الملقب بالبسيط فاخذ يجمع الجيوش ويحشد القوات تأهبًا لملاقاتهِ على ان رولو تمكن من الاستيلاء على روان وتوطيد قدمهِ فيها قبلما استطاع شارل ان يخرجه بالقوة ومع انها كانت حصينة فرولو زادها منعةً وحصانةً فانهُ حالاً شرع في ترميم الحصون وتكبيرها وبنى بيوتًا للزاد واقام المعاقل والابراج من كل جهة ومجمل القول انهُ جعلها من امكن المراكز الحربية التي يتعذّر على العدو اخذها

ثم انتشبت بينهما حرب طويلة كان فيها النصر لرولو وذلك زاده افتخارًا وتعظيمًا فانهُ ضايق الملك شارل حتى اركن للفرار فتأثره من مدينة الى مدينة ومن ساحة الى اخرى حتى استولى على قسم كبير من شمالي فرانسا ونظم لهُ حكومة مستقلة تحت ادارتهِ رغمًا عن اجتهاد الملك شارل في صده وطرده . ولم يزل ينازلهُ ويظفر بهِ حتى حصره ضمن باريس وعندها اضطرّ شارل ان يكف عن قتالهِ ويسعى في الصلح والسلام معهُ

فطلب رولو ان تعطى البلاد حوالي نهر السين ملكًا لهُ ولاتباعهِ فلم يرد شارل ان يفلت من يده هذا القسم الكبير بل ارتضى ان يكون امارةً مستمرة تحت سلطانهِ ورولو يتولاها كذوك معترفًا بسيادة ملك فرانسا عليها

فقبل رولو بذلك لانهُ كان قد طال عليهِ زمان الحرب . ومل الطعن والضرب زهاء الثلثين سنة وكان من شروط الصلح بينهما ان جسيل ابنة شارل تعطي زوجةً لرولو وان رولو يتنصر ويقدم الطاعة لشارل علانيةً امام الروساء والاعيان كما كانت العادة في تلك الايام وهكذا ترتب للصلح ثلثة شروط اولها تقديم رولو الطاعة لشارل وثانيها تنصره وثالثها اقترانهُ بجسيل ابنة شارل وكلها واحد من حيث غايتها اعني خضوع ذاك الامير المقيد السلطة (اي رولو) لسيادة ذلك الملك المطلق السلطان (اي شارل)

ولما جاء وقت اتمام الشرط الاول وغص المشهد بالامراء والضباط والقواد انف رولو ان يخضع لحكم ذلك الشرط على العادة المالوفة في ذلك العصر اي ان يركع امام الملك ويضم يديهِ احداهما الى الاخرى بين يدي الملك علامة الخضوع ويقبل رجل الملك ضمن خف ثمين وقد شق عليهِ على الخصوص القيام بالقسم الاخير من هذا الشرط اعني تقبيل الرجل

على ان هذه العادة لم تكن غريبة في تلك الايام فان البابا كان قد اوجبها على احد الملوك قبل ذلك العهد بمئة سنة ولكن تقبيلها كان يسهل على من يتنازل لها من حيث النظر

الى الصليب الموضوع عليها والفكر بانهُ قبل علامة الام المسيح وموتهِ لا رجلاً بشرية

اما رولو فتمنع عن تقبيل رجل الملك شارل وعدَّ هذا الفعل حطةً في شانهِ وتنزيلاً من علو قدره ولكن ارتضى ان يقوم في ذلك احد رجالهِ عوضاً عنهُ . فتقدم ذلك الرجل الى رجل الملك ورفعها بعنف وخشونة بحيث كاد يقلب الملك عن مجلسهِ الى الوراء وهذا احدث بين الحاضرين ضحكاً شديداً

ثم بعد ايام قليلة احتفل عماد رولو في كنيسة روان بغاية التجلة والاكرام وعقد اقترانهُ بجسيل واستحالت قلاقل الحروب التي كابدها نيفاً وثلاثين سنةً الى سكون وراح في ظلال المسرات والافراح . وتولى منصب الامارة (الدوكية) باقي حياتهِ بالامان والسلام والحكمة والتقدم حتى صيرها من اغنى امارات اوربا وخلف فيها شيئاً كثيراً من معدَّات الارتقاء للذين خلفوه بعد موتهِ

ويظهر انَّ الذي حدا رولو ورجالهُ على اختيار هذه المقاطعة دون غيرها انما هو امكان الدخول اليها من الخليج الانكليزي على نهر السين وكثرة غناها وشدة خصبها لانها معدودة في كل زمان جنة فرانسا وحينما ياتيها السياح في الوقت الحاضر ينظرون الى حسن مواقعها وبهجة مناظرها بعين العجب والاندهاش

وظلت سلسة امراء نورمندي من رولو متصلة الحلقات الى وليم مدة مئة وخمسين سنة بدون انقطاع والبلاد في بحر هذا الوقت كانت ترتقي في معراج التقدم والنجاح وتزداد غنى وثروةً فضلاً عن الازدياد في عدد السكان . والسير في سبيل الحضارة والعمران . بقدر ما كانت تسمح بهِ ظروف ذلك الزمان . ولا يتبادر الى ذهن القارئ ان سكانها الاصليين هاجروا منها بل ليعلم انهم لبثوا فيها يتعاطون الفلاحة والرعاية عند اسيادهم النورديين لكنهُ على تمادي الايام اختلط النوعان احدهما بالآخر بحيث صار تمييزهما في الوقت الحاضر يتعسرَّ او يتعذَّر .

الفصل الثاني

ولادة وليم

قلنا ان رولو اتخذ مدينة روان عاصمة امارتهِ وجعلها غاية في المنعة والحصانة بحيث صارت العظمى في مقاطعة نورمندي ولا تزال كذلك في الوقت الحاضر على انها لم تبق مركزاً

الخلافة في عهد الامراء الذين خلفوا رولو فان الامير روبرت ابا وليم وهو السادس في السلسلة الدوكية غادرها واتخذ قلعة كبيرة في فاليس مقرًّا للامارة وتلك القلعة كانت مبنية على اكمة تبعد قليلاً عن المدينة وقد مضى عليها عهد طويل وهي مهجورة متروكة صلقعًا بلقعًا على ان اطلالها ورسومها لا تزال الى الان تشهد على عظمتها الغابرة . وشهرة رفعتها الدابرة بل لا تزال محط ركاب السياح المتقاطرين اليها من جميع النواحي ليشاهدوا مولد (مكان ولادة) ذلك البطل القاهر . والملك الظافر

اما تلك الهضبة المبنية عليها القلعة فكانت تنتهي من احدى جهاتها باحادير صخرية ومثلها من جهتين اخريين بحيث كان يتعذر على العدو الصعود اليها من هذه الجهات الثلث المحاطة بالاحادير والاجراف واما جهتها الرابعة فكانت كذلك من حيث التحدر والعلو ومنها المدخل بطريق كثيرة التعاريج تخرج من المدينة الى القلعة وكان الموصل بينهما محصنًا على الجانبين بخندق وجسر يوضع عند المرور ويرفع بعده وعلى كل من جانبي بوابة القلعة برج حصين زيادة في المنعة وفي الوادي بين المدينة والقلعة نهر صغير يجري وينعطف دائرًا على حضيض تلك الهضبة فيحيط بها احاطة الهالة بالقمر . والاكمام بالثمر . اما دار القلعة فكانت محصنة بسور كثيف غاية في القوة والمتانة وداخله ابنية كثيرة عديدة متفرقة منها كنيسة وبرج مربع الشكل مبني من حجر ابيض وقيل انه لا يزال باقيًا للان غير منهدم فيه شيء وعلى اربع جهات السور مراقب او ابراج كان يقضي فيها الخفراء ادق الخفارة نهارًا وليلاً احتسابًا من مفاجاة الاعداء وكانت تلك المراقب تطل على بر شاسع . وسهل واسع . وحقول مزينة بانواع الاشجار ورياض مرصعة بالانوار والازهار . تدبجت فيها الالوان هذا ابيض وذاك اخضر وذلك احمر . وتارجت منها الاطياب هذا ورد وذاك نرجس وذلك مسك اذخر . وبينها مجاري انهر صافية يترقرق عذبها على ذيالك العقيق . بما يذكرك العذيب والعقيق ويسيل لجين ماءها . على در حصبائها . ويطيب القلب باعتلال هواءها

لله روض في ابسطح غابة آسادها صرعى عيون ظباءه
فلجينه من ماءه والعطر من ارجاءه والدر من حصباءه

وقد مرَّ بنا ان ابا وليم روبرت كان السادس في سلسلة الامارة وعليه يكون وليم خلفه السابع ولما كان من غرض راوي الحوادث افادة القارىء فائدة تاريخية فضلاً عن تسليته بما يتنزل لديه منزلة قصة راينا ان ناتي الى حادثة ولادة وليم على طريق تاريخ موجز عن كل حلقات السلسلة الدوكية من رولو الى وليم

وإننا لنشير على القارىء ان يستوعب هذه الخلاصة التاريخية بملء الاعتناء والمبالاة علماً بان الاسباب الحقيقية التي قادت وليم الى بلاد الانكليز يتعذر ادراكها بدون الوقوف على بعض الحوادث المهمة التي تعلق بالامراء اسلافهِ قبل ولادتهِ ولا سيما بالاميرة أما ابنة الامير الثالث كما سياتي معنا بالخلاصة الآتية فان تاريخ حياتها الغريب الحوادث لهُ علاقة شديدة مع الاسباب التي جرَّت وليم الى ذلك الافتتاح الخطير . والظفر العظيم الكبير . ولذلك لم نرَ بدّاً من سرده بالتفصيل حتى اننا افردنا لهُ فصلاً مخصوصاً في كتابنا هذا

خلاصة تاريخية . عن الامراء النورمندية

واولهم

رولو من سنة ٩١٢ ب م — ٩١٧

ان رولو نُفي من بلاده روج نحو السنة ٨٧٠ وبعد سنين قليلة اتى فرانسا ولم تستقر قدمهُ فيها ولا تهيأ لهُ عقد صلات السلام مع ملكها شارل والجلوس على تخت الامارة النورمندية الا الى سنة ٩١٢ وكان اذ ذاك قد طعن في السن وتقدم في الايام فظلَّ خمس سنوات يعتني في اصلاح شوون الامارة واحكام امورها ثم استقال عن منصبهِ وخلف ابنهُ عوضاً عنهُ وطلب ان يصرف باقي حياتهِ تحت ظلال الراحة والسلام ومات سنة ٩٢٢ اي في السنة الخامسة من استقالتهِ .

الثاني وليم الاول من ٩١٧ — ٩٤٣

هو ابن رولو تولى الامارة خمس سنين قبل وفاة ابيهِ وقضى فيها نحو خمس وعشرين سنة بالنجاح والامن وقُتل غدراً من عصبة سياسية تامرت على اغتيالهِ سنة ٩٤٢

الثالث رتشرد الاول من ٩٤٣ — ٩٩٦

وكان ابن عشر سنين حين غدر بابيهِ فصلاه ملك فرانسا حرباً عواناً فاضطرَّ ان يستنجد اهل الشمال ويدعوهم الى مساعدتهِ فلبوا دعوته على انهم حملوه اخيراً اثقالاً لاتنقص عن اثقال عدوه الاول الذي استنصرهم عليهِ . ولما تصعب عليهِ اجلاؤهم عن بلاده وارجاعهم من حيث اتوا رأى ان يصطلح مع ملك فرانسا وبهذا تمكن من طردهم في الحين . وردهم على اعقابهم منكوصين

وكانت لهُ ست جميلة تدعى اما هذه اكتسبت شهرة عظيمة ونالت مقاماً رفيعاً وحصلت

ذكرًا خطيرًا في عصرها كما سياتي معنا في احد الفصول ان شاء الله ومات رتشرد سنة ٩٩٦ بعد ما حكم ٥٤ سنة

الرابع رتشرد الثاني من ٩٩٦ — ١٠٣٦

هو ابن رتشرد الاول وإذ كان ابوه مثقلاً باحمال الحروب مع سلطانه ملك فرانسا مدة ملكه احتاط هو ايضًا بالمعارك المستمرة مع اتباعه سادات امارته واشرافها فارسل يدعو الشماليين لاغاثته كما فعل ابوه وفي ايامه كانت نار الحرب منتشبة بين السكسونيين والدانيين فجاء اثلرد مقدام الحزب الاول وزعيمه الى نورمندي وهناك تزوج بالاميرة اما اخت الدوك رتشرد الثاني وسياتي معنا تفصيل نتائج هذا الاقتران . ثم مات رتشرد هذا سنة ١٠٣٦ عن ابنين رتشرد و روبرت وكان وليم الظافر ابن اصغرهما وولد قبل وفاة رتشرد الثاني بسنتين

الخامس رتشرد الثالث من ١٠٣٦ — ١٠٣٨

هذا خلف اباه في الامارة لانهُ كان الاكبر اما اخوه روبرت فكان اذ ذاك في رتبة بارون وكان عمر ابنه وليم «وهو الذي تلقب اخيرًا بالظافر» سنتين . وكان ميالاً كل الميل لاخذ مكان اخيه في الامارة نظرًا لما كان منطورًا عليه من الطمع في الشهرة وحب الارتقاء في سلم السيادة فاغتنم الفرص واستعمل ما امكنهُ من الوسائط في تقصير ايام اخيه حتى مات فجاة موتًا مجهولاً يحمل البعض على الظن في انهُ كان مسمومًا على انهُ لم يقم عليه دليل قاطع وكان ذلك بعد توليه الامارة بسنتين

السادس روبرت من ١٠٣٨ — ١٠٣٥

هذا خلف اخاه بعد موته كما تقدم معنا وقد حدتهُ محبة الذات والشهرة على استخدام كل قوة امارته في مساعدة ملك فرانسا على اخضاع اخيه الاصغر الذي كان يسعى في ذات مشروع روبرت المتقدم ذكره فانت مساعدتهُ الملك هنري بنتائج حسنة وقدرته على قمع عصيان اخيه وكبح جماحه وجعلتهُ يشعر بالشكر والممنونية لروبرت على هذا الصنع الجميل . وبظل كل ايام حياته مستعدًا لاجابة كل مطالبه ومقترحاته ثم مات روبرت سنة ١٠٣٥ حين كان وليم ابن احدى عشرة سنة

اما ولادة وليم فكانت في غاية البساطة والحقارة مع انهُ كان كما لا يذهب من فكر القارئ ابن احد اولئك الامراء «الدوكات» الذين تولوا مقاطعة نورمندي بكمال السطوة الملوكية والسيادة الباذخة . فان أمهُ لم تكن زوجة روبرت ابيه . بل كانت في بدأتها بنتًا حقيرةً ابنة دباغ من فاليس ولم يكن ابو وليم حين تزوّجها قد تسنم غارب الامارة واقتعد متن السيادة

بل كان عندئذٍ بارونًا عند ابيهِ حتى انهُ لم يكن من المحقق انهُ سيصير دوكا لانَّ اخاه الاكبر وليّ العهد كان لايزال حيًا اما كيفية تعرُّفهُ (روبرت) بابنة الدباغ هذه فكانت على الوجه الآتي

بينما كان روبرت راجعًا من سفارةٍ ارسلهُ اليها ابوهُ لقي بعضًا من بنات الفلاحين يغسلن على شاطئِ النهر وكنَّ جميعهنَّ حافيات متسترات بثيابٍ عبث بها الخلق والرثاثة وكان بينهنَّ بنت دباغ تدعى أرلت · هذه اسرت ذلك البارون الشاب بجمالها فرمقها بعين الاندهال والولوع حين مرَّ بهنَّ لانها كانت حسنة الطلعة جميلة العينين زرقاويتهما وقد لاحت على وجهها تباشير اليمن والسعادة

وكانت عوائد تلك الايام كما في وقتنا الحاضر لاتبيح لمن كان شريفًا رفيعًا ان يتزوج بنت فلاح وعليهِ فلم يكن يسوغ لروبرت ان يتخذ ارلت زوجة لهُ على انهُ لم يكن يصدّهُ شيء عن ان يأتي بها الى قصرهِ ويسكنها معهُ اذ لايحرّم ذلك سوى ناموس الله وهذا قلما كان الدوكات والامراء في الاجيال المتوسطة يعيرونهُ جانب الالتفات والمراعاة حتى انهُ الى هذا اليوم لايزال مهملاً في البلدان التي ما برحت تحت سيادة الدوكات والامراء الذين لايجرون من السنن والشرائع الا ما يرونهُ وفق مرغوبانهم وطبق اميالهم

وبناء عليهِ فحالما بلغ روبرت القلعة انفذ رسولاً من قبلهِ الى القرية الى ابي ارلت يوعز اليهِ ان ارسل ابنتك اليَّ . فاسقط ذلك الاب بيدهِ حيرةً لايدري ماذا يفعل وقيل انهُ كان لهُ اخ راهب او ناسك وقد صرف معظم حياتهِ منقطعًا للتزهد والتبتل الى الله في صومعةٍ بقرب فاليس فارسل يستدعيهِ ليستشيره في هذا الشان فاشار عليهِ ان يمتثل امر الامير ويجيبهُ على طلبهِ كيف كان واذ ذاك القى ذلك الدباغ المسئولية على عاتق اخيهِ وتسلح بمشورتهِ وسرَّ قلبهُ بانفتاح هذا الباب الذي قدّر لنفسهِ ولكل عائلتهِ الولوج منهُ الى ديار الرفعة والنجاح بواسطة التقرب من ذلك الامير الخطير وبادر في الحال الى تحلية ابنتهِ وتزيينها وتهيئتها كخروف الى الذبح ليرسلها الى فاليس

وهناك افرزت لها غرفة داخل القلعة ذات كوى وشبابيك تطل منها على الحقول والغياض في السهول الريانة الجميلة . وقد احبها روبرت محبة شديدة خالصة وبالغ في اكرامها واعزازها ولا سيما بعد ما ولدت لهُ وليم

اما وليم فكان محبوبًا جدًا من ابيهِ وبعد ولادتهِ . بسنتين مات ابو روبرت وخلفهُ اخوهُ الاكبر اي رتشرد الثالث الذي لم يمضِ عليهِ سنتان صرفهما . حروب معهُ حتى لحق بابيهِ وخلا

الجو له فتولى دست الامارة في القلعة واصبح حاكمًا على كل مقاطعات نورمندي وملحقاتها

وكان وليم اذ ذاك ابن اربع سنين وقد لاحت على وجهه تباشير النشاط وبرقت اسرّته بانوار الجمال واخذ يزداد اقدامًا وبراعةً ولم يحتقره ابوه او ينكره كما كان المنتظر والمظنون بل كان يفتخر جدًّا بان يجلس ويشاهد حركات العابه الغريبة ويقرّ جهارًا بانه ابوه وهو ابنه وبالحقيقة ان وليم كان محبوبًا عند جميع من كانوا في القلعة ولما صار ابن خمس او ست سنوات اولع شديدًا بلعب العسكرية فكان ينظم الاولاد رفقاءه جيشًا صغيرًا ويسحبهم حول القلعة بغاية الترتيب والتهذيب وذلك اكسبه الجراءة والبسالة ونفخ فيه روح العزم والنشاط وربى فيه منظر الوقار والرزانة بحيث بات مالكًا زمام امور عشرته ومتسلطًا عليهم فكان في يده الحل والعقد في كل العابهم ومشاجراتهم ومحاوراتهم وسائر شوونهم ومجمل القول انه نال ميزة رفقته بكل سهولة الى الدرجة التي كانت تطلبها ظروف ابيه اعني كونه ابن حاكم نورمندي كما صار يدعى حينئذٍ وبعد مضي بضع سنين عقد روبرت النية على زيارة الارض المقدسة ولم يبعثه على ذلك الاخلاص في الدين والتعمق في التقوى بل حب الشهرة والحصول على البركة والعظمة اللتين ينالها كل ملك او امير يزور او يحج الى تلك الاماكن ولا ريب انها كانت على روبرت سفرة طويلة مخطرة جدًّا . ولربما نشأ الاعتقاد بنوال البركة والعظمة بالسفر الى الارض المقدسة من النظر الى ما يكابده المسافر من الاتعاب والمخاطر برًّا وبحرًا ولا سيما في تلك الايام

وكان من عادة الملوك والامراء انهم قبل خروجهم للسفر يقيمون معتمدًا من قبلهم يكلون اليه رئاسة الاحكام وتدبير شوءون المملكة في غيابهم ويشيرون الى من يخلفونهم في الملك اذا لم يرجعوا سالمين

وعليه فلم يعزم روبرت على السفر حتى تشاغلت افكار الناس وتضاربت في امر الخلافة ومن ستعهد اليه لان روبرت لم يكن بعد قد تزوج (شرعيًا) وبالنتيجة لم يكن له ابن يخلفه وقد كان له اخوان وعم وبعض اقارب وجميع اولئك تنازعوا طلب الخلافة وانبرى كل منهم يستميل اليه الضباط والقواد وكبار المامورين ويمهد لنفسه طريق الاستيلاء على منصب الامارة بينما كان روبرت نفسه يسعى سرًّا في تسمية وليم الصغير ولي عهده على انه لم يفه بكلمة في هذا الشان بل بذل جهده في تعظيم اهمية ابنه في عيون الجميع وتشهيره في سائر الامور

وكان وليم يتدرّج في مدارج نباهة الشان ويترقى في مراقي النبالة والبسالة والحزم والاقدام من جمالٍ في المنظر ووقارٍ في المعشر حتى اصبح معززًا محبوبًا من كل الامراء والضباط وسائر الاشراف الذين كانوا يجتمعون به كثيرًا في قصر ابيه وبعض الاحيان كان يزورهم

الى قلاعهم وحصونهم في موكب والده

اخيرًا عقد الدوك روبرت مجلس شوري من كل الاسياد والامراء وجميع كبار بلاده واشرافها للبحث في امر سفره الى البلاد المقدسة فاتوا من كل انحاء نورمندي وكلٌّ منهم محفوف بمظاهر التجلة والتكريم ومصحوب بفرقة من الرجالة والفرسان مدججين بالات الكفاح والجلاد وغارقين بالحديد والفولاذ ولما التأم المحفل اعلن لهم روبرت قصده وعزمهُ على السفر فقام واحد من الحضور يلقب غاي كونت برغندي وخاطبهُ بما ياتي «اني حزين لاسمع ان الدوك ابن عمي ينحو هذا المنحى لاني اوجس خوفًا على سلامة البلاد في غيابهِ حين تصبح كل احوال الحكومة ونظاماتها والامراء والاسياد والضباط والعساكر بدون راس»

فاجابهُ روبرت «كلا — ليس الامر كذلك لاني عازم ان اخلف لكم حاكمًا عوضًا عني» قال هذا واشار نحو الغلام الجميل وليم الذي كان بجانبهِ وقال «عندي هذا الغلام الصغير الذي وان يكن الان قاصرًا لي ثقة بهِ انهُ سينمو بنعمة الله شيئًا فشيئًا وارتجى منهُ رجلاً شجاعًا حكيمًا فاسلكم اياه مذ الان وابيح لهُ حق الاستيلاء على دوكية نورمندي وريثًا لي بمعرفتي وارادتي وهوذا قد اقمت الان دوك برتاني ليحكم على نورمندي باسمي الى حين رجوعي وان لم ارجع فباسم وليم ابني حتى يدرك ويبلغ سن الرشاد» . فاسقط جميع الحضور حيرة واندهاشًا من جراء هذا التعيين والانتخاب واصبحوا على بكرة ابيهم ينازعون العجب العجاب . اما الان دوك برتاني احد المتنازعين الخلافة فطفح قلبهُ سرورًا من حصولهِ على شرف هذه الوكالة التي دعي اليها على حين غفلة لانهُ كان يفضل في تلك الظروف الحكم باسم غيره على الحكم باسمهِ نظرًا لما كان يتهدده من المخاطر والمشاق لو فرضنا انهُ استطاع ان يغتصب لنفسهِ الحكومة المطلقة

واما المنازعون الاخرون «اي طالبو الملك لانفسهم» فلم يعودوا يستطيعون ان يفوهوا ببنت شفة واما باقي الحضور فسرَّهم ان سمعوا خبر تمليك وليم غاية السرور واذ ذاك راى الدوك روبرت انهُ تهيأ لهُ اتمام ما كان برغبةٍ فعمد الى وليم واقامهُ على ذراعيهِ وقبلهُ واداره صوب الجمهور فحدق وليم نظره فيهم وشخص الى عددهم الحربية بعين النشاط والزكن وعندئذٍ خروا جميعهم امامهُ بيانًا لطاعتهم لهُ حسب عادة تلك الايام وقطعوا عهدًا على انهم يعملون على الخضوع لهُ بالامانة والاخلاص وقد راى روبرت انهُ ليس من الحكمة ان يترك ابنهُ تحت مناظرة المنافسين والمناظرين في نورمندي وعليهِ اخذه معهُ الى باريس وهو ذاهب في طريقهِ الى اورشليم واستودعهُ بلاط هنري ملك فرانسا الذي عقد جلسة خصوصية للنظر في امر قبولهِ فجلس في بهرة المحفل محفوفًا بالوزراء والامراء وسائر كبار دولتهِ ولما جاء الوقت المعين دخل الدوك

روبرت لابسًا حلة السفر وقابضًا على يد ابنهِ وليم وهو محاط بحاشيتهِ وخواصهِ الذين ازمعوا ان يرافقوهُ في سفرهِ . وسار الى حيث سلطانة الملك هنري جالس وخرَّ عند قدميهِ علامة الخضوع والانقياد وامر ابنهُ وليم ان يفعل كذلك فاستقبل الملك هنري وليم بمزيد الاحتفاء والاكرام بان اخذه اليهِ واحتضنهُ ووعد ان يسكنهُ قصره ويبذل غاية جهده في الاعتناء بهِ مدة غياب ابيهِ

فاعجب جلساء الملك بجمال وليم وحسن طلعتهِ ونباهة شأنهِ وما لاح على ساطع محياهُ من لوائح الحذق والنبل وتباشير العظمة والوقار مع انهُ لم يكن حينئذٍ سوى ابن تسع سنوات

الفصل الثالث

سفر روبرت الى الارض المقدسة

وبعد ان قضى روبرت مدة ليست بطويلة في باريس دخل قصر ملكهِ هنري يستأذنهُ بالانصراف وودع ابنهُ وليم وخرج في رجالهِ للذهاب الى اورشليم . وقد لاقى في سفرتهِ هذه صعوبات شديدة ومخاطر عديدة لا محل للاتيان على ذكرها هنا من حيث خروجها عن موضوع هذا التاريخ الذي هو الابن وليس الاب ومهما يكن من سفرهِ بصفة زائرٍ وحاجٍّ فقد كان بغاية البهرجة والاجلال وبعدما عاج برومية لقضاء بعض اغراض تتعلق بسفرهِ خلع عنهُ ثياب السفر ولبس حلتهُ الدوكية وجاء القسطنطينية وهناك بالغ في اظهار غناه وعظمتهِ فانهُ حينما دنا من المدينة امتطى بغلاً مرخَّماً (اي مزينًا بالخز زينة) ولهُ النعال من ذهب عوضًا عن الحديد وكانت تلك النعال غير محكمة الالتصاق بالحوافر بقصد انها تهتز في سير البغل فتسقط على الارض فيلتقطها جمهور المتفرجين وغاية ما هنالك ان يندهش الاهلون وتحار افكارهم بوفرة غنى الراكب وعظمة ثروتهِ ثم غادر الاستانة واتجه نحو الارض المقدسة ولم يخلُ لهُ الجو في تلك السفرة من تقلبات الزمان وصروف الحدثان فانهُ أُصيب فيها بمرض خبيث تركهُ يعاني الالم الشديد ردحًا من الزمان الى ان تعافى قليلاً بحيث أُرجعت لهُ بعض القوة واصبح قادرًا على

ان يستأنف المسير محمولاً في سرير لانهُ لم يستطع الركوب ولا المشي ولم تكن بعد اخترعت المركبات فرتبوا ستة عشر عبدًا يتبدون حملهُ اربعةً اربعةً .

وفي ذات يوم التقى روبرت وقومهُ برجل نورمندي راجع الى بلاده من زيارة الارض المقدسة . هذا سأل روبرت اذا كان يريد ان يرسل معهُ شيئاً الى نورمندي فاجابهُ «لا شيء سوى ان تقول للاهل هناك انك صادفتني على طريقي الى اورشليم محمولاً باربعة عشر عبدًا»

ثم جاء روبرت اورشليم وقضى فروض الزيارة وخرج منها قاصدًا بلاده على انهُ ما عتم بعيد ذلك ان شاع في باريس خبر موتهِ على الطريق . وظهر في بادىء الامر ان ذلك مشكوك في صحتهِ او مكذوب فيهِ وظل الناس بين مكذبين ومصدقين الى ان تحقق الخبر وظهر صدقهُ بين الجميع وانتشر . واذ ذاك طفق اخوة روبرت وابناء عمهِ وغيرهم من ذوي قرباه يتهيأون لاغتصاب الامارة كلٌّ يطلبها لنفسهِ وينازع فيها الاخرين كأنهم نسوا ما اقسموا بهِ لروبرت من العمل على طاعة وليم بامانة واخلاص واخذ كلٌّ منهم يجهد نفسهُ في تحصيل اكليل الخلافة لهُ . وكان وليم في اثناء ذلك في باريس وهو ابن احدى عشرة سنة فقط حيث كانت تصرف العناية التامة في تهذيبهِ وتثقيفهِ وقد وُكلت المناظرة في تعليمهِ العلوم الحربية الى معلم ماهر يدعى ثيرولد . فسرَّ هذا المعلم سرورًا عظيماً بنجاح تلميذهِ وتقدمهِ ولا سيما في تمرينات ركوب الخيل المختلفة الاساليب المتنوعة الاضرب حسب اصطلاحات تلك الايام وقد هذبهُ في استعمال الاسلحة المختلفة كالقسيّ والنبال والحراب وسمر الرماح وبيض الصفاح الى غير ذلك من ادوات الجلاد والكفاح ومرّنهُ في لبس عدد الحرب الفولاذية التي كانوا يلبسونها في تلك الايام اتقاء مضارب العدو من مثل الخوذة او الطاسة والدرقة والدرع وغيرها

فبين وليم يأخذ عن استاذه في باريس هذه الفنون الحربية تأهبًا للاستواء على عرش الامارة اذ قام في نورمندي عدد عديد من المنافسين والمناظرين وتهيأ كلٌّ منهم للسبق في ميدان المنازعة وكان اشدهم جهادًا وابذلهم جهدًا في ذلك اميرارك وكان اسمهُ وليم ايضاً ولكن لكي يتميز عن الدوك وليم الشاب ندعوهُ ارك واذ انهُ كان اخا روبرت ادعى بان حق الخلافة انما هو لهُ من وجه ان اخاه لم يخلف ولدًا شرعياً وعليهِ حشد كل قواتهِ وجمع كل رجالهِ وتأهب لفتح البلاد والتسلط عليها

ومما لا يذهب من بال القرّاء ان روبرت قبيل سفره الى اورشليم عهد الوكالة في الامارة

ليد الان وفوضة الحكم باسمهِ الى حين رجوعهِ وان لم يرجع فباسم ابيهِ وليم حتى يشب ويبلغ سن الرشاد . وتوجد فيهِ الاهلية ليحكم على كل هاتيك البلاد . فلما بلغ الآن ما صارت اليهِ البلاد بشيوع خبر موت روبرت من الاضطرابات والقلاقل وان ارك عازم على اغتصاب الامارة عنوة ان لم تسلم اليهِ باللين امرحالاً بتشكيل لجنة من كبار الحكومة الذين بمساعدتهم كان يدبر شؤون الوكالة ولما تنظمت تلك الجلسة تحت رئاسته هي سيل البحث من سماء الافكار وابلاً مدرارًا واجمع الجميع برأي واحد على قبول الدوك وليم خليفة بعد ابيهِ روبرت واخذوا من تلك الساعة يقضون باسمهِ ولما أُخطروا بقدوم الامير ارك متأهبًا لمصادمتهم واغتصابهم فضيب الملك بادروا في الحال لملاقاتهِ على طريق التأهب والاستعداد وهكذا هبت نيران الحرب تتقد من تحت رماد السلام . بما كان يهب عليها من رياح البغض والخصام .

وقبلما اشتعلت بين الفريقين نار الحرب . ودارت رحى الطعن والضرب . جاء نورمندي الامراء الذين كانوا مع روبرت وكانوا على جانب عظيم من رفعة الشان وعلو الكلمة وشدة النفوذ حتى ان كلا الفريقين المتهيئين للقتال تمنى لو انهم يكونوا من حزبهِ لانهم فضلاً عن اقتدارهم على المساعدة المادية لهم استطاعة عظيمة على الاسعاف الادبي ايضًا لان سياحتهم هذه الطويلة المحفوفة بالمخاطر والاتعاب اكسبتهم اعتبارًا ووقارًا في عيون الشعب الذي كان ينظر اليهم بعين الاحترام وفوق ذلك لانهم انتُخبوا من كل اطراف الامارة لمرافقة روبرت في تلك الزيارة وقضوا تلك السفرة الطويلة تحت تجشم الاخطار والمشقات وظلوا يقومون في خدمة اميرهم والسهر عليهِ الى ان ادركتهُ المنية . وكل ذلك ما كان يحدو الشعب على عدهم اخلص اصدقاء روبرت واصدقهم حبًا له فلاجل هذا ولاسباب أُخر اضربنا عن ذكرها كان الشعب يتوقع النصر والفوز للفريق الذي يسعدهُ الحظ بانضمام اولئك الامراء اليهِ

اما هم فحالما بلغوا نورمندي اتحدوا مع الفريق النازع لمبايعة وليم رغماً عن اجتهاد الفريق الاخر في استمالتهم اليهِ فادخلهم الآنْ في ديوانهِ وعلى الفور عقدوا مجلسًا للبحث في شان احضار وليم من فرنسا وعدمهِ فذهب البعض منهم الى ابقائهِ في فرنسا من وجه انهُ لا يزال صغيرًا وليس في وسعهِ ان يأتيهم بادنى مساعدة في ساحة الوغى سوى انهُ يكون معرضًا اكثر منهم للاسر او للقتل وعليهِ ارتأوا ان يظل في الوقت الحاضر في باريس تحت حماية الملك هنري

اما البعض الآخر فذهب بالعكس وصرَّح بوجوب الاتيان بهِ واحتجَّ بان وجوده في نورمندي وان كان صبيًا في سن المراهقة يؤثر في قلوب اتباعهِ نشاطًا وانتعاشًا ويحدث في جميع جهات الامارة ميلاً اليهِ شديدًا . واشتباهًا نحوهِ جديدًا . حتى يرى اهل القلوب اللينة من

نعومة اظفاره وعجزه عن القيام بطلب حقهِ محامياً يحجّ عنهُ ايا احتجاج . ويجد الوف من الشعب من ريعان حداثتهِ وجمال صورتهِ ووضاء طلعتهِ حادياً يسوقهم الى طاعتهِ وسحراً يجذبهم الى محبتهِ . مع انهم كانوا ينسونهُ ولربما ينفرون عنهُ اذا بقي في باريس وفوق كل ذلك من يقدر ان يضمن سلامتهُ عند الملك هنري ولربما هذا الملك ذاتهُ يطلب حق الاستيلاء على عرش الامارة النورمندية فيولي عليها احد المقرّبين اليهِ ويحجر على وليم في احد قلاعهِ ويتركهُ هناك اسيراً غير مهانٍ من حيث المعاملة ولكن يقطع الرجاء من اطلاقهِ ونجاتهِ . او انهُ يدسُّ لهُ سماً مميتاً يذهب بحياتهِ

فصدّق الاكثرون على هذا الرأي واستصوبوهُ وعليهِ انفذ الآنَ علمًا للملك هنري بهِ يطلب ارسال وليم الى نورمندي فابى ارسالهُ متصعباً ممتنعاً فاضطرب الحزب الوليمي واشفق من تحقق الظن في طلبهِ حق الاستيلاء والسيادة فاستأنف طلب وليم بمزيد اللجاجة والالحاح وبعد مداولات ومخابرات عديدة ومعاهدات متنوعة بين ذلك الحزب والملك هنري اجاب هذا طلبهم وسمح لوليم بالرجوع لبلاده وهو اذ ذاك في سن الثانية والثالثة عشرة

فخرج من باريس محفوراً بالرسل الذين انفذهم الان للاتيان بهِ وحاميةٍ قويةٍ من الجند سارت في حراستهِ على الطريق ومعهُ معلمهُ الحربي ثيرولد وهكذا جاء قصر الان على جناح السلام والامان . وكان لحضوره في نورمندي وقع عظيم كما كان في حسبان الذين ارتأوا ذلك كما سبق الالماع اليهِ وقد حرك في قلوب الاكثرين عوامل الميل نحوهُ فسر الجنود سروراً الامزيد عليهِ بان رأوا قائدهم الصغير مالكاً زمام الملاحة قابضاً على عنان النشاط وسدة العزم منذ الصغر ولا سيما لانهم ابصروا منهُ في ركوب الخيل فارساً مجرباً اذ كان مغرماً اشد الغرام في ركوبها منذ طفوليتهِ اما الآن وقد تهيأ لهُ الحصول على اجودها واكرمها واخذ عن استاذهِ ثيرولد كلما يتعلق باساليب فنّ الركوب وطرائقهِ فلا نعجب من ان نرى منهُ على ظهر الجواد قبلة من القلل يجري في ميدان السباق باسرع من وميض البرق او جري البراق . ويدخل ساحة الحرب من ابوابٍ . تقضي بالعجب العجاب . وحولهُ الامراء والاعيان . والرجالة والفرسان . ينظرون الى كرّاتهِ وغاراتهِ . ويكبرون من لباقة خطراتهِ ورشاقة حركاتهِ . ويتوسمون طالع النصر والظفر في طالع جبينهِ الانور . ويتلون في فرقان محياهُ انا اعطيناك الكوثر . وعلى هذه الكيفية كنت ترى وليم عند قومهِ . وقومهُ من قدومهِ في يومهِ .

واما قيادة الجيش وازمة الاحكام فلم تزل في يد الان يجريها باسم وليم كما سبقت اليهِ

الاشارة على ان وليم نفسهُ لم يعدم قوة النفوذ والسلطان والاخذ بمجامع القلوب بل ألآن ايضاً رأى ان اتيان وليم زاد كلمتهُ علوّاً وسطوتهُ تعززاً واحكامهُ نفوذاً ومع كل ذلك فالبلاد كانت لم تزل بعيدة عن الطاعة والانقياد هاجرة مضاجع الراحة والسكينة لان اميرارك وغيره من طلّاب الامارة تحصنوا في قلاعهم وجمع كلٌّ رجالهُ اليهِ وجاهر في العصيان على الحكومة الوليمية . ولا يخفى على القارئ انهُ في تلك الايام كانت كل مقاطعة من البلاد تحت سلطة امير مستقل في ذاتهِ فكان يجلس في قلعتهِ متحصناً بقواتهِ متمنعاً بسطوة رجالهِ وهو حرٌّ مطلق الامر فعالٌ لما يريد يجري احكامهُ في البلاد على نمط الاستبداد الشديد . وينفذ قضاءه على العباد بقضيب من حديد . وكانت نيران القتال بين اولئك الامراء مستمرة الاشتعال كل منهم يتعدى تخوم الاخرين ويعيث مفسداً اخذاً بثار لهُ عندهم او تاديباً لهم على اساءة بدت منهم او انهُ توهمها فيهم وكانت تلك الاضطرابات والانقلابات في ابان ثورانها حين رجوع وليم من باريس وما برح شرها يزداد تفاقماً وخطبها هولاً واشتداداً حتى عمت البلاد وبلت العباد بالويل والخراب وتعذر على الحكومة الوليمية ان تعود تميز بين اعداءها واصدقاءها فانهُ حدث مرة انها اصدرت امراً باسم وليم لامير احدى المقاطعات توعز اليهِ ان اجمع رجالك وتعال الينا فاننا في حاجةٍ اليك في امر ذي بال اما هو فما كان منهُ الا ان اجابها بما يأتي عندي كثيرٌ من المشاغب والفتن التي تضطرُّني ان اقوم في اخماد نارها وتصدني عن تلبية امرٍ آخر

وما مرَّ على وليم نحو من سنتين في نورمندي وحكومتهِ اشبه شيء بدفة في البحر تتقاذفها الامواج حتى زاد طينهُ بلة حادث جديد من الملك هنري نفسه . فانهُ لما كان وليم ابن خمس عشرة سنة وذلك بعد اتيانهِ من باريس بسنتين او ثلث ارسل اليهِ الملك هنري يدعوهُ الى ملاقاتهِ في بلدة تدعى افركس بين باريس وفاليس لكي يقدم لهُ رسوم الطاعة المفروضة على دوكيتهِ فداخل مشيري وليم ريب من جهة ذهابهِ وعدمهِ على انهم اخيراً اجمعوا على وجوبهِ وهكذا أُعدَّت التاهبات اللازمة وركب وليم بمزيد الاحتفاء والعظمة لملاقاة سلطانهِ

فاستغرقت هذه المقابلة بين وليم وملكهِ بضعة ايام وكان لوليم قلعة في جنوبي دوكيتهِ على متاخمة املاك هنري واسمها تلّير يتولى حراستها ضابط امين متقدم في الايام يدعى دي كرسبن هذا اقامهُ روبرت ابو وليم على حراسة تلك القلعة وأمدَّهُ بحامية من الجند فاخذ الملك هنري يشكى الى وليم بخصوص القلعة وقال ان حرّاسها دائماً يشنون الغارة على تخومهِ ويبلون تلك الاطراف بالسلب والنهب فاجابهُ وليم مظهراً مزيد حزنهِ واسفهِ انهُ سوف يتولى بنفسهِ البحث

عن هذا الشان حتى اذا تحقق صدقة بادر في الحال الى كبح جماحهم وقمع تعديهم . فاجابة الملك هنري « هذا ليس كافيًا بل اعطني تلك القلعة فادكها الى الحضيض فتصبح ركامًا مركومًا » فساء في عيني وليم هذا الطلب واذ انهُ كان قد تعود العمل على طاعة الملك هنري ومن نعومة اظفاره « لكل امرء من دهره ما تعودا » رأى ذاتهُ مضطرًا ان يجيب سوالهُ هذا و في الحال اصدر امرًا في تسليمها مكرهًا

فلما بلغ دي كرسين ذلك الامر رفضهُ وابى القيام بموجبهِ محتجًا بان تلك القلعة سلمت لمناظرتهِ على عهد الدوك روبرت حاكم نورمندي وعليهِ فهو برفض تسليمها لسلطة اخرى اية كانت . ولما وقف وليم ومستشاروهُ على هذا الجواب اغتاظوا غيظًا شديدًا عالمين ان مقاومة الملك هنري في مثل تلك الظروف لا تجديهم نفعًا بل بالحري ترتد عليهم نكالاً من حيث ان وليم كان عندئذٍ في حوزتهِ وتحت قبضة سلطانهِ فاستأنفوا ارسال الاوامر للقائد دي كرسين باكثر الحاح واشد لجاجة في تسليم القلعة فامتثل لامرهم اخيرًا وسلم مفاتيحها وانسحب منها هو ورجالهُ واذ ذاك أُجيز لوليم ان يرجع لبلاده ولم تلبث القلعة ان دُكت الى الارض وتركت اثرًا بعد عين .

على ان هذه الحادثة آلت الى زرع العداوة بين الحكومتين الافرنسية والنورمندية وطوت القلوب على الضغينة والحقد حتى انها انتهت بشبوب حرب عوان افتتحت بان زحف الملك هنري بجيشهِ على نورمندي وطفق يفتح المدن ويخرب القلاع و يهدم الحصون والمعاقل ويعمل السيف في رقاب من لم يطيعوهُ . ويضرم النار في مساكن من راموا ان يقفوا في وجههِ و يصدوهُ وما زال يتقدم في نورمندي بين افتتاح واخراب حتى جاء قلعة فاليس ومدَّ عليها مطار الحصار . فانخلعت اذ ذاك قلوب الوليميين وخارت قواهم واسقطوا قنوطًا وفشلاً لما رأوا من تعاقب الخطوب ومعاكسة الاحوال على انهم ما لبثوا أن نهضوا بعزيمة شديدة وانحدوا على الذب والدفاع عن بلادهم وتأهبوا لرفع الحصار عن فاليس واجلاء عساكر هنري عنها بعد ما كانوا قد احاطوا بها من كل جانب وشددوا عليها الحصار وكادوا يفتحونها لولا أنَّ وليم تداركها وولَّ جيوش الاعداء مدحورين مذعورين وتفصيل ذلك ان الملك هنري رشا حاكم القلعة فوعده ان يسلمهُ مفاتيح الابواب و يدخلهُ اليها ظافرًا منتصرا و بينما هما يسعيان في تدبير هذه الخيانة قدم وليم بعرقة من النورمان الشجعان وانطلقوا على معسكر هنري وغاروا على المحاصرين كالاسود الكاسرة فلما ابصرهم اهل المدينة فرحوا وتهللوا واستبشروا بحلول الفرج وزوال الضيق وكادوا يطيرون سرورًا حالما رأوا فارسهم المدافع وليم الظافر قادمًا لانقاذهم

وحينئذٍ تذكروه يوم كان ولدًا صغيرًا يلعب حول اسوار تلك القلعة والان جاء يرد الاعداء عن مسقط رأسهِ بهيئةٍ تولي الناظرين عجبًا واندهاشًا فلعبت في اعطافهم راح الابتهاج والفرح ورفعوا اصوات التاهيل والترحاب بقدومهِ اما ذلك القائد الخائن فلم يجازَ على خيانتهِ بالقتل حسب شريعة تلك الايام بل خلعت عنهُ ثيابهُ الرسمية وضبطت املاكهُ وأُخلي سبيلهُ

وهكذا استظهر وليم على عدوهِ الملك هنري وازداد قوة ومنعة . على أنَّ عمهُ اميرارك كان لايزال مجاهرًا في العصيان عليهِ وقد ساعدتهُ التقادير بانشغال وليم بالقتال مع الملك هنري حتى خلا لهُ الجو فنهض من زاوية التربص وشرع يجمع رجالهُ متاهبًا لاستئناف المشاغب والفتن وشنّ الغارات اذلالاً للحكومة الوليمية وسعيًا في اسقاطها وقلبها فجمع اليهِ عصابتهُ وتحصن في قلعتهِ ارك وهي الى الشمال من نورمندي على متاخمة البحر ولا تزال اطلالها ورسومها الى هذا اليوم وكان هذا الامير قد بنى في اعلاها برجًا حصينًا يلتجىء اليهِ مع نفر من رجالهِ عند مسيس الحاجة

فزحف اليها وليم برجالهِ وخيم حولها وحصر العصاة ضمنها اما الملك هنري الذي كان لا يزال باقيًا على مقربةٍ من نورمندي فاخذ يتهيأ بجيشهِ لياتي الى نجدة الامير اركٍ

فلما احاط وليم علمًا بقدومهِ ترك قسماً من عسكرهِ في محاصرة القلعة وخرج في القسم الاخر لملاقاة الملك هنري وانتهى الامر بقتال عنيف دارت فيهِ الدائرة على الملك هنري وحاز وليم الشاب انتصارًا مجيدًا

وبيان ذلك انهُ كان على الملك هنري ان يسير بجيشهِ في وادٍ طويل ضيق مظلم الى جهة قلعة ارك فجرَّ عساكره في مجاهيل ذلك المضيق وهم في غاية النظام والاحكام وكان مقدَّم ذلك الجيش مؤلفًا من كماةٍ غارقين في الحديد متسلحين بالاقوس الحربية والحراب والرماح وانواع اخر من الاسلحة التي اشتهر استعمالها في ذلك العهد ثم عقب هذه الفرقة حاملو الاثقال من خيام ومؤونات ومهمات اخر حربية ثم جاء بعدهم الخدام من طباخين وساقة مركبات وفعلة وغيرهم من الذين اتوا لاعداد الضروريات حلاً وترحالاً وبعدهم دخلت فرقة القلب وفيها الملك يتقدمها محفورًا بحرسهِ الملوكي ثم تلاها مؤخر الجيش

ولما بلغ وليم ان الملك هنري زاحف اليهِ بذلك الجيش الكثيف ارتأى في الحال ان يكمن لهُ في الطريق . ويجرّه الى تيهٍ سحيق . يعجل فيهِ اخترامهُ . ويوصل الى كل هاتيك الانحاء انهزامهُ . وعليهِ انتخب من رجالهِ النورمنديين ابطالاً مجرّبين . وكماةً بكل ضروب الاسلحة مدججين . وساقهم الى مضيق وامرهم بالاختباء على جانبيهِ بين الادغال والغابات واوعز

الى فرقةٍ اخرى ان تتقدَّمهم لملاقاة جيوش هنري وتفتح معها القتال ثم تنكسر قدامها متقهقرة بترتيب بحيث يتوهم الملك هنري ان هذه كل حامية وليم . وقد ولت الادبار . وارکنت الى الفرار . فيطمع في انهُ حازها ويتأثرها وهي تنكفئ نحو ذلك المضيق حتى اذا ما تعقبها هنري بكامل جيوشهِ واصبح هو وكل عساكرهِ في بطن ذلك الوادي طلعت عليهِ تلك الاسود الكامنة في غاباتها من الوراء . وانهالت على طلائعهِ كالقضاء . وارتدت اليهِ تلك الابطال من الامام . بعد اذ تظاهرت بالانهزام

وهكذا تسنى لوليم بهذه المكيدة الاستظهار على هنري والفتك بهِ ورده ورجالهِ على اعقابهم مدحورين منكوصين . فان مقدَّم جيوش هنري انخدع بانكسار الفرقة النورمندية امامهُ وظنها ايضًا انها كل عسكر العدو فصغرت في عينيهِ . وسهلت الظفر لديهِ . ولذلك غار عليها بملء الغيرة والحمية . واتصل نبأ هذا الهجوم الى كل اقسام جيش هنري فهاجوا وماجوا وارغوا وازبدوا وابرقوا وارعدوا واندفعوا يتزاحمون نحو عدوهم الهارب امامهم حتى سالت بهم تلك الارض . وارتجت من صخب اصواتهم بالطول والعرض . وما فتئوا بين دفاع وازدحام في ذلك المضيق على بعضهم البعض . وطفقوا يموجون فيهِ ويخطرون . ويطلبون الاعداء ولا ينظرون وبينا هم كذلك انطبق عليهم الكمين من الوراء انطباق القدر ورجع اليهم المنهزمون وانصبوا انصباب المطر . ومطرتهم سماء المنون سهام ورماح وحراب لا تبقي ولا تذر . حتى انطرح منهم في الحال مئات . وبقي الاحياء بينهم لو سقطوا الاموات . وما برحوا يخرُّون صرعى المنون في تلك الوهدة . ويرون عدد ضراغم النورمنديين الخارجة من عرنها في تكاثر وازدياد حتى زهقت من جميعهم الارواح . وتيقنوا حلول الاجل المتاح . فاخذوا يتدافعون ويلتطمون ويزحمون بعضهم بعضًا ويدوسون بعضهم بعضًا لعلهم يجدون الى الحياة سبيلا . او ينقعون من ماء النجاة غليلا . حتى سقطت موتاهم في تلك القفار . طعامًا لطيور السماء ووحوش الفلاة وفرَّ احياؤهم لا يلوون . الاَّ على الخزي والعار . وهم يقولون النجاة النجاة

وبالجهد قدر الملك هنري ان يلم شعث رجالهِ الطوال الاعمار الذين تفرَّقوا تحت كل كوكب في هاتيك الانحاء فظلَّ اكثر من يومين ينشدهم بين النجاد والوهاد حتى جمعهم شرذمة قليلة العدد وخيم بهم في بقعةٍ صغيرة

ومهما يكن في نبأ هذا الانتصار من العجب والاندهال فهو دون الطفيف في جانب النظر الى اتضاع وليم وكرم اخلاقهِ وصدق طاعتهِ لانهُ وهو معتدى عليهِ اولاً وظافر قاهر آخرًا بادر في الحال وقدم لمليكهِ هنري رقيم الطاعة ينصح فيهِ عن اسفهِ على ما جرى ويبين لهُ استمراره

على الرضوخ له وحسبانهِ ملكهُ وسلطانهُ واستعداده للقيام بكل ما يندبهُ اليهِ من المهام والاعمال اصلاحية كانت او دفاعية واتكالهِ عليهِ في شق عصا العصاة . وارغام انوف البغاة العتاة . على ان وليم وان اقرَّ باحتياجهِ الى امداد سلطانهِ فقد تعلم منذ نعومة اظفاره ان يعول على ذاتهِ ويحك جلده بظفره ولهذا ما عتم بعد ان خبت نيران الحرب بينهُ وبين هنري أن زحف على قلعة ارك وحالاً افتتحها عنوةً وعفا عن اميرها وتلك كانت خاتمة الثورات وارك آخر الثورَة

وعندها ركب وليم راجعًا لفاليس منتصرًا مظفرًا تخفق فوق راسهِ اعلام النصر والغلبة وتسير امامه مواكب العزِ والاحتفاء . وهكذا جلس على عرش الامارة يدير الاحكام بالسلام. وطائر الامن والمسرة يشدو فوق الربوع النورمندية باطرب الانغام

الفصل الرابع

ملك وليم في نورمندي

ثم مضى على وليم منذ تربع على دست الامارة يدير شؤُونها تحت ظلال الامن والسلام الى وقت حمله على بلاد الانكليز زمان طويل ينيف على العشرين سنة وكان في غضون هذه المدة مشغولاً في ادارة الاحكام . بيد الاتقان والاحكام . ومنصرف العناية نحو تشييد المعاقل واقامة الحصون والقلاع . وبناء المدن والقرى والضياع . والتنكيل باهل الفساد والعدوان . وقطع دابر الشقاق والعصيان . وسن الشرائع والقوانين المدنية في كل البلاد . وتنفيذ الاوامر على وجه الحق والسداد . وقد اعترك في ميدان حياتهِ جملةً من فرسان الحوادث . ونازلها بثبات تستصغر لديه كبار الكوارث وها نحن الان نأتي على واحدةٍ منها تبصرةً للقارئ وذكرى .

وهي انهُ عقدت ذات يوم موامرة على اغتياله والفتك به سرًا . وكان مقدام هذه الغارة . واصبع تلك الاشارة . عمه المدعو « غي اف برغندي » . واما هتك ستارها . وكشف اسرارها . فتم بواسطة ظريفٍ كان في بلاط وليم بصفة ماجن اي رجلٍ يتعاطى الهزل كابي نواس

عند هرون الرشيد وكان المجان في تلك الايام غاية في الكثرة بحيث لم يخل قصر كل ملك او امير من واحد او اكثر منهم وكان بعضهم لا يمتازون عن المجانين من حيث الغرابة في التصرف والهجنة في الاخلاق وإنتناهي في الحمق والبلاهة و بعضهم متناولين من العته والخبل على الاقل نصفة وكنت تراهم يعتورون الغريب الى نهايته في الملابس ويدركون الزخرفة غايتها في الزينة على اختلاف الالوان وتضارب انواعها ويلبسون البرانس والقلانس (العرني والطواقي) ويعلقون الرخوت (الاجراس) المختلفة الانواع ويجلسون في المحاكم آخذين باطراف المجون والمزاح وكان اسم ماجن وليم غالت

اما غي اف برغندي واتباعة فانقطعوا الى قلعة منفردة موحشة على متاخمة نورمندي وهناك صاروا يجتمعون لاجل استتمام مقاصدهم وتسديد مكائدهم وحشد رجالهم وتعزيز قواتهم تحت ليل الاحتيال والدهاء . في ظلام الغموض والخفاء . وقبلما تهيأ لهم اتمام مكيدتهم حدث ان وليم خرج للصيد الى قفر يجاورهم في عصبة من حاشيته وكان غالت الماجن بينهم .

فلما بلغ غي واتباعة المغتالين قدوم وليم الى تلك الاطراف اجمعوا على انفاذ مؤامرتهم والاستئثار به عند رجوعه وعليه انسحبوا من مخابئهم بين محاجئ الصخور واحدًا واحدًا لكي يدفعوا عنهم مظنة التآمر واتوا مدينة تدعى بايكس ينتظرون فيها رجوع وليم وهناك عقدوا مؤامراتهم السرية وارتأوا الآراء النهائية ثم بعثوا بعصبة من رجالهم الى مفارق الطرق التي كانوا يتوقعون مروره فيها واوعزوا اليهم ان يتعهدوه بعين الضبط والانتباه . ويسدوا دونه كل ابواب النجاة . وهكذا اتوا على آخر اجراءاتهم بطريق التستر والخفاء . وجعلوا يقطعون الشقق امانيهم بلا مراء . والله من وراء ما كانوا يعملون

فحدث ان بعضًا من اتباع وليم سبقوه في الرجوع ومن جملتهم الماجن غالت وقدموا بايكس يوم حلتها اقدام اولئك المغتالين اما اهل تلك المدينة فلم يعلموا شيئًا من امر اولئك الثائرين لانة كثر حينئذٍ تردد العساكر الى بلدتهم فرسانًا ومشاةً فلم يستطيعوا ان يفرقوا بين اصدقاء وليم واعدائه اما غالت فبعد ما طاف في انحاء تلك البلدة و رأى فيها عددًا عديدًا من الضباط والجنود التي لم يعرفها من رجال اميره وجد في ذلك ما يستميلة للانتباه ويدعوه للملاحظة فشرع يراقب حركات اولئك الغرباء . بملء الفطنة والذكاء . ويصغي اليهم على حين كان يتظاهر بعدم الاصغاء . لعلة يصيب منهم كلامًا كانوا يخاطبون بعضهم بعضًا به وهم مجتمعون فرقًا هنا حشد وهنالك اجتماع . او سائرون في الشوارع مثنى

وثلاث ورباع . حتى توفق بآراءه السديدة . ودقة ملاحظاته العديده . الى هتك ستار المؤامرة وكشف حجاب المكيده . وعلى الفور خلع عنهُ برنسه واجراسهُ ولباسهُ وخرج يعدو ملتهبًا بنار السرعة في التفتيش على وليم ليقص عليهِ الخبر . وينذره بدنو الخطر . فاهتدى اليهِ في قرية تدعى فالنجس وكان وصولهُ اليها ليلاً فاندفع نحو المخدع حيث كان وليم نائمًا مزاحمًا الحراس مدافعًا الخدم الذين لم يبدوا في وجههِ الا بعض الممانعة لسبب تعودهم عليهِ وتحققهم سماح وليم لهُ في كل وقت بالمثول لديهِ ثم نادى باعلى صوتهِ موقظًا اميره من سباتهِ . مخبرًا اياه بشدة الخطر الذي دنا من حياتهِ . اما وليم فلم يصدق غالت في بادىء الامر اذ لم يرَ سببًا لهذا الخوف كلهِ -الى انهُ ما لبث ان اقتنع بصحة كلام ماجنهِ وايقن بصدق انذاره فنهض يلبس ثيابهُ بيد السرعة ولم يؤتمن احدًا على نفسهِ في تلك الساعة شان الملوك والامراء حين اكتشافهم المكائد المنصوبة لهم اذ لا يعودون والحالة هذه يعرفون المخلصين لهم ليتكلوا عليهم وهكذا ذهب وليم بنفسهِ واسرج حصانهُ بيده وركبهُ وخرج يبذل في شاكلتهِ المهماز . ويبرد صدور الارض على الاعجاز . وبالحقيقة ان باب النجاة الذي خرج منهُ كان اضيق من سم الخياط لانهُ في وقت اسراع غالت اليهِ في فالنجس قدم المغتالون الى تلك القرية نفسها ومدوا عليها مطار الحصار وكانوا على اهبة الهجوم على محلة وليم للايقاع بهِ في ذات الساعة التي خرج فيها طالبًا الفرار موليًا الادبار .حتى انهُ لم يبعد قليلاً في عدوه الاَّ طرق اذنيهِ صوت وقع الحوافر على الطريق خلفهُ . وصليل اسلحة العساكر من الاعداء الذين لما رأوه اركن الى الهزيمة خرجوا يتأثرونهُ ليوردوه حتفهُ . فارتأى ان يسرع في التعريج من امامهم الى غاب كثيفة يختبىء فيها ويتركهم يذهبون يطلبونهُ من حيث لا يجدونهُ فاقام في ذلك المخبأ برهةً قصيرة ثم خرج منهُ متحرزًا ولم يجسر ان يعمل على المسير في الطريق العمومية مع ان الوقت كان ليلاً بل اعتسف منها في القفار المهجورة والمسالك المجهولة التي انتهت بهِ اخيرًا الى شاطىء البحر وعند فلق الصبح مر بقصر كبير وعلى حين لم يكن يخطر ببالهِ ان يرى احدًا في وقت كهذا استوقفهُ بغتة منظر رجل في بوابة القصر مدججًا بسلاحهِ تلوح على وجههِ سمات الانتظار — وقد كان بالحقيقة منتظرًا حصانهُ — فتعرف وليم حالاً وخاطبهُ بلسان الاندهاش قائلاً «اليس من العجيب ان تكون انت هذا الرجل ياسيدي الدوك وليم ؟» فقد اعجبهُ جدًّا ان يرى امير نورمندي وحاكمها خارجًا في وقت كهذا او في حالة كهذه وحيدًا معيبًا وثيابهُ غير مرتبة من جراء السرعة التي كان فيها حين لبسها وجواده منقطع النفس وعليهِ من الغبار ستار كثيف وهو على وشك السقوط عياء وتعبًا . فلما رأى وليم ان قد شق ستر الخفاء عن

محيا امره لم يعد له ندحة عن ان يقص لذلك الرجل قصته وظهر اذ ذاك ان هذا الرجل كان هاربرت احد الثائرين المتواطئين على اغتيال وليم وقد انفرد في ذلك القصر لهذا القصد ولامر يريده الله رجع عن تلك الغاية وقال لوليم «ما من داع يدعوك الى الخوف . عليَّ نجاتك وسوف أسعى في انقاذ حياتك كانها حياتي» قال هذا واهاب ببنيه الثلثة الذين كانوا من الابطال المجربين والشجعان المثخنين واوعز اليهم «ان اركبوا خيولكم وكونوا على اهبة السفر» ثم ادخل وليم قلعته وسعى باحضار ما تسنى من الاطعمة والاشربة سدًّا لجوعه الشديد . يدونقعًا لظمائه الذي لم يكن عليه من مزيد . ثم خرج به الى عرصة الدار حيث أراه الفرسان الثلثة ركبين مستعدين لان يرافقوه وفرسًا كريمًا من جياد الخيل مسرجًا له فامتطاه وأمر هاربرت بنيه ان يوصلوا وليم الى فاليس على جناح السرعة والامان واوصاهم ان لا يستطرقوا الطرق العمومية ولا يمروا على مدينة او قرية في الطريق وهكذا اطاعوا الامر وذهبوا به على نحو ما اوصاهم ابوهم الى فاليس وفي صباح ذلك اليوم بعد خروج وليم من قلعة هاربرت جاءت مطاردوه يمشون عليه وسألوا هاربرت عما اذا كان رآه مارًّا من هناك فاجابهم بالايجاب وامتطى في الحال جواده وأشار لهم ان يتبعوه ليدلهم على الطريق التي سار فيها وليم والح عليهم في الاسراع علهم يدركونه قبل ان يتوارى عنهم في احد المخابىء او يصل حيث يتعذر عليهم متابعته فحثوا الركائب بجد يفوق الحد وهاربرت يسير امامهم ويعدهم انهم سوف ينالون مرامهم ولكنه اذ ذهب بهم في غير الطريق التي اتخذها وليم كانوا يبتعدون عنه اكثر فاكثر . واخيرًا رأوا ان لا فائدة من تأثره فانكفأوا مع هاربرت راجعين الى قلعة تحت راية الحبوط والاخفاق في وقت وصول وليم وبني هاربرت الثلثة الى فاليس بسلام .

واذ ذاك رأى اولئك الثائرون انه يستحيل عليهم البقاء تحت غاياتهم المستترة بذيل الخفاء والغموض وتيقنوا انهم اصبحوا عرضة لخطر هجوم وليم عليهم بعساكره واهلاكهم عن آخرهم فلم يعد لهم والحالة هذه بد من اجراء امرين وهما اما الهزيمة على جناح السرعة او المجاهرة بالعصيان فاجمعوا على الثاني فدارت بينه وبينهم حرب عوان دارت فيها الدائرة عليهم . ورجع كيدهم اليهم . اذ نازلهم فاصاب منهم كل مضرب واستظهر عليهم ففرق شملهم تحت كل كوكب . واكثرهم سقطوا بين يديه اسرى . فاذاقهم من مر القصاص ما جعلهم للغير عبرة وذكرى . وكان من جملة ما قاصهم به انه ارتأى ان يصنع تذكارًا لانتصاره هذا بان يمد طريقًا عموميًا في البلاد على الخط الذي سار فيه يوم كان هاربًا من وجه اعدائه مع اولاد هاربرت ويكلف

الاسرى العصاة انشاءه

وقد اتى هذا المشروع بفائدة عظيمة لذلك القسم من البلاد لان طرقها القديمة كانت في غاية الصعوبة على السالك فيها بسبب تراكم الاوحال عليها نظرًا لانخفاض ارضها وانغمارها بالمياه في اكثر فصول السنة حتى كنت تراها كلها مستنقعات وهكذا اخذ اولئك العصاة يشتغلون في تمهيد تلك الطريق السلطانية مكابدين الاتعاب والمشقات حتى اكملوها فكانت خير مشروع حصل في ذلك العهد فتطرقتها ابناء السبيل . وانطلقت ألسن سكان ذلك القطر على وليم بالثناء الجميل . والشكر الجزيل . وما برحت آثار تلك الطريق الى هذه الايام شاهدة لوليم بحسن الصنيع . وسائقة له الرحمة والرضوان من السن الجميع .

وكانت مساكنهم قلاعًا عظيمة مبنية على تلال رفيعة ومهما يكن من حسن اثارها الباقية لهذا اليوم فقد كانت غاية في عدم الترتيب والنظام وكنت تراهم في غاية الفرح والابتهاج يوم كانوا يرون بعض اصدقائهم مسرعين الى الالتجاء عندهم من وجه الاعداء او حينما يصقلون اسلحتهم ويعدونها استعدادًا للخروج في اخذ ثارٍ او شنِّ غارةٍ واما في وقت السلام فكنت تراهم بغاية الكدر والانكماش ويصعب علينا في هذه الايام ان نتصور فراغ تلك القلاع والحصون من وسائط الراحة واسباب الامنية فانها كانت مبنية كما تقدم الكلام في اماكن يتعذر الصعود اليها وتلك الصعوبة الطبيعية من جراء الموقع كانت تزداد منعة وصعوبة بواسطة الاسوار والابواب والمعاقل والحفر والابراج والجسور التي كانت ترفع بعد المرور عليها فالابواب كانت عبارةً عن كوى في الحيطان على علو عشرٍ او خمس عشرة قدمًا من الارض ولها المراقي تدلّىّ من الداخل فيصعد عليها الاصدقاء والاصحاب اما من داخل تلك القلعة فكانت الارض مرصوفة بالحجارة والحيطان عريانة والاقبية (السقوف) معقودة من حجارةٍ غليظة والغرف صغيرة بعضها فوق بعض طبقات متتابعة وكانت على صغرها كالقبور والسراديب المظلمة لا يزينها شيءٌ من شبابيك ايامنا الواسعة المبهجة التي فضلاً عن فائدتها في ادخال النور الى داخل البيت تمتع الناظر منها بالاطلال على المناظر الجميلة والمشاهد البديعة ولم يكن كتب في تلك المساكن الموحشة — لا اثاث سوى الاسلحة ولا مسرات غير المسكر والطيش بملاهي الاعياد والمواسم .

ولم يكن امراء ذلك العهد وكبراؤه يستطيعون ان يشغلوا نفوسهم بامر مفيد فلم

يروا شيئًا اشهى اليهم من الحرب وكانوا يشيحون بوجوهِ باسرهِ عن جميع وسائل الدأب وطرق السعي فحراثة الارض وتربية المواشي ومعالجة الصنائع والمعامل والمتاجر وغيرها من الذرائع التي يتوخاها الانسان لنفع بني نوعهِ كانت بالكلية غير معروفة عندهم بل محتقرة لديهم ولك ان تستدل على صحة هذا القول من النظر الى الباقين من ذريتهم في الوقت الحاضر فانهم حتى في نفس انكلترا ينظرون هذا النظر ويرتأُون هذه الآراء فبنوهم الاصغرون ينخرطون في سلك العسكرية البرية او البحرية ويصرفون حياتهم بالقتل والافساد وبدون خجل تحت ظلال الكسل وارتكاب القبائح والرذائل واما ان يتعاطوا للعمل سببًا من اسبابهِ الحقيقية التي عليها يتوقف مجد انكلترا وعظمتها فذلك عندهم وصمة وعار ابديان فالشاب الشريف منهم يخدم كادني الشعب في سفينة حربية ويقبل على خدمتهِ اجرة بدون ان يحتسب ذلك حطة لقدرهِ ولكن ان يبني سفينة حربية ويؤجر عليها يعده تعريًا من شرفهِ وسقوطًا من رتبتهِ

وبالنتيجة فقد كان السلام للامراء والاشراف في عصر وليم مدعاة القلق ومجلبة السام والضجر فلم يكن يستكن لهم مضجعٌ ولا يهنأُ عيش بدون اصلاء نار الحرب وشهود مواقع القتال. وذلك لا ريب في انهُ كان من جملة البواعث التي كانت تدفع الامراء الى المؤامرة على وليم وشق عصا الطاعة لهُ. على انهُ كان لهم سببٌ جوهريٌّ لمقاومتهِ في حق الملك وهو انهُ كان يشقُّ عليهم ان ينظروا من رجلٍ كوليم واطيء النسبة يل خسيسها ومرذولها من حيث الام وارثًا لخلافةٍ عظيمة كدوقية نورمندي وقد اعتادا عداؤُه ان يقذفوهُ ويشنعوهُ باللقبٍ مستهجنة يشتقونها من مصادر حوادث ولادتهِ ومع انهُ كان صبارًا على الاذى وكريمًا يعفو عن اساءة الاخرين كانت تلك الاهانات المطبوعة على ذاكرة والدتهِ كحمة تلسعهُ في جلده. وتستثير كمين ضغنهِ ودفين حقدهِ. وتحيي فيهِ روح الغلّ والكشاحة ويؤيد ذلك هذه الحادثة وقد وردت في أكثر تواريخ وليم المكتوبة. اتفق في احد حروبهِ انهُ زحف في البلاد لمهاجمة قلعة حصينة كانت فضلاً عن مناعة اسوارها وحصونها الطبيعية محصنة بحاميةٍ قوية كثيرة العدد ولعظم ثقة هذه الحامية بشدة قوتها وكثرة عددها جردت اذ سمعت بقدومهِ فرقة لملاقاتهِ ليس لكي تفتح معهُ حربًا جهارية بل بقصد ان تكمن في الطريق وتفاجئ مقدمة جيشهِ على حين غفلةٍ وهو غير حاذرٍ عدوًّا قريبًا وبعيدٌ عن نجدة باقي العساكر ولكنهم لم يجدوا كما عهدوا فانهم في الحال ذعروا من مكمنهم ونكصوا على اعقابهم

هاربين امام وليم ورجاله الذين تأثروهم على الاعقاب وبالجهد استطاعت تلك الفرقة ان تصل القلعة وترفع وراءها الجسور وتوصد خلفها الابواب في وجه المطاردين قبل ان ادركها وليم ومدّ عليها بعساكره مطار الحصار.

اما حامية القلعة فامتعضت من خيبة تلك الفرقة امتعاضاً . وملئت صدور عسكرها على اختناق مسعاهم انكماشاً وانقباضاً . وقد أحفظهم ان تلك الفرقة لم تنشل في سعيها فقط بل دحرت امام عدوها لا تلوي الاّ على الخزى والعار . ولم تنجُ من فتكه الا بعد شق النفس وقد تعقبها موقعاً فيها الفضيحة والذل والانكسار . ولكي يسلّوا سخيمتهم ويميتوا ضغنهم ويردوا على وليم الكيد الذي كادهم به صعدوا الى اعالي الحصون والاسوار ومن هناك اطلقوا عليه وطفقوا يرمونه باعلى اصواتهم بالفاظ الشتائم والمسبات . ويقذفونه بالاهانات والتعييرات حتى اذا فرغت منهم حياض الشتائم . ولم تبرّد شيئاً من غليل الضغائن والسخائم . عمدوا الى مشترى ما استطاعوه من الأُدُم « جمع اديم وهو الجلد الاحمر المدبوغ » وما آزر الحور » السختيان » وغيرها مما له علاقة بصناعة الدباغة واخذوا ينشرون بايديهم على مراى وليم وعساكره وهم يجهدون باصوات التهكم والاستخفاف كانهم يذكرون وليم بجده ابي امه الدباغ حتى اوغروا صدره حرداً واحتداماً . وغادروا مراجل السخط تضرم في قلبه اضراماً . واضطروه ان يشير في الحال الى فرقة من رجاله بهجوم شديد فكروا كرّ الصناديد . واندفعوا بقوة التحمس ينقضون انقضاض البواشق . وينشبون نشب الصواعق واذ لم يقع في ايديهم احدٌ من حامية القلعة المنظمين داخلها استعاضوا عنهم بمن وجدوه من الفعلة خارجها واتوا بهم اسرى بين يدي وليم فامر في الحال ان يزقوا قطعاً قطعاً ويرموا بالمقاليع الكبيرة من فوق الاسوار الى داخل القلعة

وفي أثناء هذه المدة التي يحيط هذا الفصل بتاريخ حوادثها في فترة الحروب النورمندية التي كان وليم يتمتع بسلامها وسكونها بعض الاحيان حدث انّ هنري ملك فرنسا عصت عليه بعض مقاطعاته فخرج وليم بجيش من النورمنديين يشد ازره في اخضاعهم فسرّ هنري في البداءة وشكر لوليم على هذه الاريحية والمساعدة في اوان الاحتياج اليها لكنه ما غنم ان غمطها واخذ ينظر بعين الغيرة والحسد الى ما حازه وليم من علو الشهرة ورفعة الشان وهو بعد لدن الاهاب غض الشباب غير متجاوز الاربع والعشرين سنة وبيده تدبير حركة القيام بكل شيء بمزيد السرعة وغاية النشاط والدقة فكان يشهد معامع القتال . ويخوض المعارك

بعزم اسود الدحال . و يدير الحصار بارشادات تحير العقول وشجاعة تخور لديها عزائم الابطال . حتى استمال اليهِ قلب كل انسان . واصبح موضوع مدح ابناء ذلك الزمان . سوى الملك هنري فانهُ طوى قلبهُ على البغض لهُ والحسد . اذ وجد انهُ قد خانهُ بل سلبهُ حق الاعتبار والاحترام الذي كان ينالهُ من الشعب وامسى لديهِ اهون من النقد واذل من بيضة البلد . وكان يظهر من بعض الحوادث الخصوصية شجاعة لوليم تقضي على عساكرهِ بالعجب والاستغراب وتحدوهم على الهتاف باصوات الاستجادة والاستحسان وهذه كانت تشاهد منهُ في الغالب عند اقدامهِ على صفوف الاعداء . او نجاتهِ من مطاردين تفوق كثرتهم الاحصاء . وقد كان لحسن الحظ وسعد الطالع يد في توليد هذه النتائج ربما اطول من يد القوة والشجاعة ولعل حسن حظ الجدي في تلك الايام كان على مدحه باعثًا لا يقل عن باعث قوة عضلاتهِ وشجاعة قلبهِ . وبالحقيقة ان هذا الاعتبار في محله وهو حق لا ريب فيهِ لان قوة الذراع وبرودة الشجاعة بل ضراوتها وغيرها من مسببات الكر والاقدام في ساعات الحروب هي صفات اخلق بالوحوش منها بالناس لاننا انما نستحسنها في الاسد او النمر ولكننا نحكم بشجبها ولعنها حينما يستعملها الانسان ضد اخيهِ الانسان منساقًا بفجور البغض ودعارة الانتقام . واليك واحدة من طرف نجاح وليم الخارق العادة وهو انهُ اراد مرة ان يتجسس اعداءهُ فذهب مصحوبًا فقط بخمسة امراء من حرسهِ الخاص حتى اشرفوا على معسكر العدو وفي زعمهم انهم غير مراقبين ولكن وقعت عليهم العيون في الحين وانتقي اثنا عشر من الفرسان المعدودين وانفذوا للايقاع بهم على الطريق فسارت هذه الفرقة وكمنت لهم في مكان كان لا مندوحة لهم عن المرور بهِ حتى اذ دنوا منهُ طلعت عليهم وامرتهم ان يسلموا قبل ان يتكلموا لان الستة امام الاثني عشر لا ترى غير الفرار سبيلاً . وليست المقاومة تجديها فتيلا . على ان عزة النفس وثبات القلب في وليم ابيا الا الاقدام والهجوم على الكمين فهزّ رمحهُ وقومهُ . وهمز جوادهُ واقتحمهُ . حتى صار قدام مقدم الفرقة فابتدرهُ بطعنة اكبتهُ على الحضيض . ووهبتهُ ان يسر الى الارض مركاس الجريض ثم اعادها على من تلاه . فصرعهُ مجندلاً على قفاه . وعند ذلك اقترب اليهِ حرسهُ الخمسة مكبرين متحيرين وكان قد نما خبر الواقعة الى جنوده فعدوا لاغاثتهِ نخبةً من ابطالهِ المجربين اما العشرة الذين سلموا من فرقة الكمين فاركبوا الى الفرار ووليم وحرسهُ يجدّون في اثرهم فادركوا سبعة منهم وشدوا وثاقهم . والثلثة الباقون لم يستطيعوا لحاقهم . فرجع وليم ورجاله بالاسرى يطلبون الخيام وفي طريقهم التقوا بالملك هنري يتقدم ثلث مئة رجل من عسكره مسرعًا اليهم واذ ذاك كان لوليم

من رؤية نفسهِ راجعاً منصوراً ومن استماعهِ حرسة الخمسة يقصون اخبار بسالتهِ وثبات جنانهِ في ذلك الخطر ومشاهدتهِ جميع القوّاد والعساكر يضجون باصوات تعظيمهِ اسبابٌ جوهرية تحملهُ على السكر براح الابتهاج . وتبعث بالملك هنري على تجرُّع ما من دونهِ المرُّ الاجاج .

وعلى هذا المنوال كان وليم يعصم لذاتهِ علو المكان ونفوذ السلطان . وينكل باهل البغي والعدوان . ويدوس شوكة التمرد والعصيان . حتى دانت لهُ المصاعب . وذلت رقاب المتاعب . فقام يدبر شؤون امارتهِ ويدبر احوالها بيد الحكمة والدراية على طريق الحق والسداد ثم وجه نظرهُ نحو التدويخ والافتتاح وضاقت عليهِ نورمندي فنزع الى التوسع بغيرها وفي غضون ذلك تزوج ولما كانت حوادث زيجتهِ لا تخلو من الغرابة اثرنا ان نجعلها موضوعاً للفصل القادم

الفصل الخامس

الزيجة

من جملة المسائل الهامة التي تعرض لمتسلطٍ عظيمٍ في قيامهِ بمهام سلطتهِ الارثية مسألة زواجهِ فان منازعيهِ وهم لا يرون بعد لهُ ولداً لا يفتأون يخفون لهُ المكائد وينصبون الاشراك مترصدين لاغتصابهِ حق تلك السلطة فرصة تعيقهُ عن صدهم من نحو مرضٍ او حرب وغيرها واعتبار هذا الخطر كان اقرب توقعاً واشد هولاً في عيني وليم الذي كان مزاحموهُ يجهرون سراً وعلناً ان حقهم في التربع على دست الامارة اعظم من حقه حياً فكم بالاحرى ميتاً وذلك كان باعثاً كبيراً على جعل الافكار تهجر مضاجع الراحة والسكون والخواطر تحمل برياح القلق والتشويش في سائر انحاء نورمندي فالواسطة الفعالة اذاً في تسكين جاش الافكار ان يكون لوليم ولد ولذا اصبحت زيجتهُ قضيةً عظيمة الاهمية وفي الحقيقة ان المقربين اليهِ من امراء وقوّاد كانوا يلحون عليهِ غاية الالحاح في قضاء هذه المسألة من وجه ان اتمامها يكون زبناً يطفو على وجه تلك الهواجس والبلابل . ويبيت دونها

ودون اهواء الخواطر اعظم حائل · وعليهِ اخذ وليم ينتش على زوجةٍ وظهر اخيرًا انهُ ليست مصلحة السياسة التي كانت تدعوهُ الى ذلك فقط بل الحب ايضًا وجد عاملاً في قلبهِ وحداه على تحرّي البحث والاستقصاء . وبالواقع ان تلك التي اطلق نحوها ناظر الطلب كانت جديرة بالحب الا وهي اميرة من اجمل وافضل اميرات اوربا في ذلك الزمان ابنة امير عظيم كان متسلطًا على بلاد فلندرس شرقي نورمندي على شواطىء الاوقيانوس الجرماني الجنوبية وكان ابوها الملقب بامير فلندرس حاكمًا مطلق السلطان وقائدًا لقوةٍ حربية عظيمة وكان لعائلتهِ من باذخ الشرف وعلو المكانة وعظمة الاعتبار ما لاعظم عائلةٍ بين امراء اوربا واسيادها وكانت تتصل برابط الزيجة بعائلة انكلترا الملوكية حتى ان متيلدا ابنة هذا الامير التي اختارها وليم زوجة لهُ كانت بموجب جداول انساب ذلك العصر متسلسلة على خط مستقيم من ذات الملك الفرد العظيم . ذلك ما عظم شانها على الخصوص في عيني وليم وكبر لديهِ فائدة الاقتران بها على انهُ كان في المسئلة نسبة عصبية اقامت عائقًا في طريق اتمامها وهي ان ابا متيلدا كان ينتسب ايضًا الى النورمند كما الى سلالة الانكليز بنوع يجعل متيلدا ووليم ابني عم وان كان عن كلالةٍ وليس لحًا وهذا وجه الصعوبة والاضطراب في هذه القضية

اما متيلدا فكانت اصغر من وليم بسبع سنين وقد نشأَت في قصر ابيها واتسع نطاق شهرتها وحلق طائر صيتها في الجمال والفضل ولا سيما في صناعة التطريز التي كان لها شان عظيم في تلك الايام التي صنعت فيها المنسوجات الملونة بغية تعليقها على حيطان الغرف المزخرفة في قلاع العظماء وقصور الملوك لتستر عري حجارتها وكانت في اول عهدها بسيطة ثم ترقت حتى صارت حواشيها تطرز بانواع مختلفة واتخذتها النساء اخيرًا شغلاً لهنَّ في ساعات الفراغ بل وسيلةً يتنفس بها لبعضهنَّ كرب النفس من طول الحصر والتحجب داخل القلاع والحصون فكنَّ يطرزن كثيرًا من الملاء «جمع ملاءة» لاغراض مختلفة بين التعليق في الغرف والاهداء الى الصديقات اما شهرة متيلدا في هذا النوع من الشغل فكانت واسعة وشاسعة وقد قيل انهُ كثيرًا ما كانت هذه الاعمال الباعث تحصيلها على النساء ايام الصبوة بالتعب والمشقة تترك بعد زواجهنَّ نسيًا منسيًا وذلك كان ليس لانهنَّ لا يعدن يجدن من لذةٍ في مزاولتها لكن تراكم الاشغال المنزلية من جهةٍ وحفظ اشغال الحياة الزوجية وما يجنا لطها من الحزن والكدر غالب الاحيان من جهةٍ اخرى كانت تحول دون تفرُّغ قلوبهنَّ للتسلية واللهو باعمال العزوبة على انهُ لم يكن الحال كذلك مع متيلدا

وربما عدنا الى الكلام على هذا التطريز عند ذكر الوقائع التي صنع لكي يدل عليها ويشير اليها اما الان فنرجع الى قصة الزيجة ونقول ان المخابرات بشان الزواج كانت تجري بين الامراء والاميرات على طريقة رسمية بواسطة مبعوثين وسفراء ونواب كثيري العدد وكان من صالحهم الخصوصي ان تلقى العراقيل في طريق اتمامها تذرُّعاً الى نيلهم بذلك منافع ذاتية وفضلاً عن هذا كله نبين حالا ان في المسألة موانع اخر صعبة تتهدد نجاح مساعي وليم المتعددة منها كراهة الاميرة وعدم ميلها بالكلية لاتمام ذلك . ولقائل يقول كيف استطاعت ان تبغض وليم وهو رجل طويل النجاد دامي المناصل . جميل الطلعة نبيه الشان طائر الصيت في الشجاعة والاقدام والظفر في معامع الحروب ومستجمع جميع الصفات التي من شانها ان تجذب نحوه اميال اميرة في ذلك العهد

نعم ولكن متيلدا رفضت الاقتران به بناء على اسباب تتعلق بولادته فلم تقدر بوجه من الوجوه ان تعتبره خليفةً شرعيًا له حق وراثة دوكية نورمندي اذ انه مع استوائه على عرش امارتها كان معدودًا لدى قسم كبير من الامراء والسادة مغتصبًا ليس الا . واذ ذاك فهو عرضة في كل حين للقلب والجلاء عن بلاده عند ادنى طارئ يطرأ عليه وبكلمة نقول ان مركزه وان كان رفيعًا فهو متقلقل وغير ثابت وحتة في طلب الارتقاء الى ذروة المجد والشرف مبهم بحيث لا يسوغ لمتيلدا تسليم امرها اليه وعليه كان جوابها على التماسه رفضًا مطلقًا على ان هذه الاسباب الظاهرة التي بنت عليها متيلدا عدم قبولها ورفضها الاقتران به لم تكن الاسباب الحقيقية الجوهرية وانما الباعث السري كان ميلها الى شخص اخر وهو شابٌ سكسوني كان ملك انكلترا قد ارسله الى بلاط ابيها سفيرًا واسمه برترك هذا بقي في قصر امير فلندرس مدة تمكنت متيلدا فيها بواسطة محافل الطرب ونوادي الانس التي اقيمت لاجل اكرامه من الاجتماع به والوقوع على محبته وكان جميل الطلعة فائق الملاحة ومن بيت عريق في الشرف والوجاهة في انكلترا وان كان دون بيت متيلدا في فلندرس على انها اذ شعرت انه يوجس خوف التقرب منها بداعي ما يتصوره فيها من رفعة الشأن والسمو على رتبته ومكانته رأت من الواجب عليها ان تتذرع الى تنشيطه وانهاضه بكشف مكنونات قلبها وهتك سرائر حبها . فطارحته حديث الوجد والغرام . وعرّضت بذكر تباريح الصبابة والهيام . فوجدته لنكد الطالع خليًا لم يكن بهواها مشغولاً وصاحيًا لم تستطع اليه راح الوجد وصولا . حتى انه بعد ان قضى الفرض الذي أُرسل لاجله استأذنها في الانصراف بمزيد البرودة . وغادرها من حيث لا يدري مسلوبة

القلب مفؤودة. وكما ان احلى خمرة قد تتحول الى احمض خل هكذا احرّ محبة تصير حين حؤولها الكلي الى امرّ بغض. فالبغض حال في قلب متيلدا الى غيظ واحتدام الغيظ الى تعطش تتلظى ناره بحسب الانتقام. لم يعد في قلبها ادنى اثر للحادث الاول ولكنها ما كانت قط لتنسى او تصفح عن سقوطها في يد نفسها يأساً وفشلاً وتعفو عن ثقل الهون الذي تحملته. وقد اتاح لها الزمان بعد ذلك ان انتقمت من برترك في انكلترا انتقاماً شديداً وسامته امر العقوبة والقسوة التي عرّته من رفعته ومكانته وعزة نفسه. وهبطت به اخيراً الى ثرى رمسه

وفي اثناء ذلك وهي مشغولة بهذا الشاغل لم تجد لها ولا ريب قلباً يصغى الى ملتمس وليم ولم يرَ من يلوزبها ادنى اهمية لمعرفة السبب الحقيقي الذي حال دون قبولها لكنهم شعروا بقوة الموانع التي تقف ضد وليم من حيث دنو عائلة امه وكونه مغتصباً لعرش الامارة اغتصاباً ثم ان صلة القرابة بين متيلدا وبينه كانت مانعة ايضاً وباعثة على الحيرة والارتباك فان نسبة احدهما للاخر كانت تمنع اقترانهما بموجب قوانين الكنيسة الكاثوليكية وعليه انفذ وليم وفداً الى رومية لاجل حل هذه الصعوبة وذلك فتح باباً جديداً للارتباك والتأخر فان السلطة البابا وية كانت تغتنم الفرص في مثل هذه الحادثة للحصول على ما يعود على الكنيسة بالخير والنفع فلا ترخص بالاقتران قبل قيام الزوجين باداء (التحليلة) من مثل بناء دير او معبد او متصدق او غير ذلك مما تنتفع بريعه بدون التفات الى سواه واذ لم يكن لذلك الوفد من داعٍ خصوصي يبعثه على تعجيل اتمام المسئلة وجد لنفسه مندوحة للتمتع بمشاهدة مناظر رومية البديعة ورأى انه يطيب له المكث فيها بصفة وفدٍ ملوكي على مزيد الاحتفاء والتكريم. ووليم ذاته كان يعاق من وقت الى اخر عن الالحاح عليهم بداعي ما كان يعرض له من الاشغال بالحروب الخارجية او الانهماك بتسكين الثورات الداخلية وهكذا لاسباب عديدة ظهر ان القضية غاية في الاشكال وربما لا يهتدى الى طريقة حلها

وبالحقيقة لم يكن رجل غير وليم يستطيع ان يصبر على هذه الصعوبات المتنوعة لانه مر عليه على ما قيل سبع سنين قبل ما ادرك من مرامه نتيجة والحادثة التالية تروى عن شدة ثبات وليم بغرابة تفوق التصديق وذلك انه بعد ما مرت السنون على المخابرات المتتابعة والموانع المتوالية صادف وليم متيلدا في شوارع بروغوس احدى مدن ابيها ولم يعلم بالتفصيل كلما حدث بينهما في اثناء ذلك الاجتماع ولكن في ختامه حمي غضب وليم

على متيلدا لداعي ما ابدتهُ نحوهُ من النفار والانقباض حتى لطمها او دفعها بعنف فاسقطها على الارض وقيل انهُ لطمها على دفعات متوالية وغادرها مطروحة مهشمة وسار مسرعًا وهو يلتهب غيظًا ويحتدم حنقًا . نعم ان المنازعات الحبية كثيرًا ما تكون وسائط لجعل المتنازعين اقرب الى بعضهما بعدها منها قبلها ولكن منازعة حبية مخيفة كهذه تعتبر نادرة جدًّا على انهُ ما عتمت هذه المنازعة على شدتها ان اعقبت بمصالحة تامة ومنها اخذت الموانع تزول شيئًا فشيئًا من طريق الاقتران الذي تم سنة ١٠٥٣ وقد احتفل بهِ في احدى قلاع وليم على تخوم امارتهِ كما كانت العادة في تلك الايام للامراء والملوك ان يقيموا عقد زفافهم في ذات مقاطعاتهم . فشيعت متيلدا بملء البهرجة والاحتفال مصحوبة بوالديها ورهط عظيم من الحامية والحرس رجالاً ونساء راكبين خيولاً كريمة مسرجة باجمل السروج يسيرون في عرض البلاد كجيش في غاية الانتظام بل بالحري كفرقة منصورة ظافرة تسير في حماية ملكة وهكذا انزلت متيلدا في القلعة على مزيد الرحب والتأهل وظلت افراح ذلك الزفاف ايامًا تضيء انوارها في سماء البلاد النورمندية وكان لباس كل من وليم ومتيلدا في ذلك اليوم جميلاً فاخرًا وعلى الخصوص كان على كلٍ منهما ملاءة تتألق باغلى الحلى وانفس الجواهر وقد بقيت ملابسها الثمينة بجواهرها الكريمة مكنوزة في كنيسة بايو الكبيرة مدة خمسمائة سنة

وبعد ما انقضت مدة الافراح المعينة في قلعة اوجي حيث عقد الاقتران خرج وليم وعروسة تحفها الامراء والكبراء والقواد والعساكر الى مدينة روان وهناك جلس ذانك الزوجان يتجاذبان اطراف الرفاء . ويأخذان باسباب المسرة والصفاء وقد توفرت لمتيلدا ذرائع الرغد ووسائط العظمة فكان لها نخبة من جياد الخيل مسرجة على الدوام ومعدة لركوبها ناهيك عما جهز لها من الاكسية الفاخرة والاثواب الجميلة الموشاة كلها بالحلى والجواهر واقيم على خدمتها من الحرس وقد عينت فرق الفرسان المخوبة للركوب معها من مكان الى اخر وبالاجمال كانت محاطة بكل دواعي الاحتفاء والتجلة — الاحتفاء والتجلة ولكن ليس الراحة والسلام فانهُ كان لوليم عمٌّ يدعى ماتجر رئيس اساقفة روان وكان على جانبٍ عظيم من نفوذ الكلمة وقوة السلطة ومعلوم ان مسرة اقرباء وليم كانت ان لا يتزوج لان زيادة الترجيح في انتقال تاجهِ الى وريث من صلبهِ كانت تضعف آمالهم المستقبلة بالاستيلاء عليهِ وتسقط اهمية شأنهم الحاضرة وعليهِ عارض ماتجر هذه الزيجة وبلغ جهده في احباط مساعي اتمامها وصرّح بعدم جوازها من وجه القرابة بين وليم ومتيلدا وقد اتخذ

لنفسهِ حق المعارضة في ذلك من وجه انهُ راس الكنيسة في نورمندي وإذ كان الزفاف قد احتفل بهِ قبل انتهاء المخابرة بشأنهِ في روميه اصدر ماتجر حرمًا لوليم ومتيلدا وشجب زواجهما الذي لم يكن قانون الكنيسه ليجيزه

وقد كان الحرم في عهد متيلدا امرًا هائلاً فالشخص المحروم كان يجتنب من الناس ويعتبر انهُ ملعون من السماء وعلى فرض انهُ امير كبير كوليم كان ذات شعبهِ يبتعد عنهُ ولا يعود يلبي دعوة اغاثتهِ والمحاماة عنهُ وقد كان ممكنًا لحاكم مطلق كوليم ان يثبت قليلاً تجاه هذه الصعوبة لولا انهُ تحقق ازدياد شدة وطاءتها عليهِ وتفاقم خطبها لديهِ بواسطة خرافات الشعب المار ذكرها واحس منهُ وخيم العاقبة وعليهِ رفع دعواه الى البابا واجتهد بالغاء الحرم هناك بواسطة راهب انتدبهُ الى رومية يدعى لنفرنك وجهزه بالوسائل المؤدية الى ابطال الحرم وابدالهِ بالبركة على الوجه الاتي وهو ان البابا يمنح (الحلة) ويثبت الزواج ويبطل حكم الحرم الذي اصدره رئيس الاساقفة ماتجر بشرط ان وليم ينشئ متصدقًا لاجل مئة فقير ويبني ديرًا للرهبان ومتيلدا ديرًا للراهبات فتاب الراهب لنفرنك عن الزوجين بالتوقيع على هذه العهدة وهكذا ازيل الحرم واعترف كل سكان نورمندي بشرعية الزواج واقبل وليم ومتيلدا على انجاز ماوعدا بهِ فقاما يلاحظان بناء الديرين بانفسهما وقد اختارا لها مكانًا في مدينة كاين على متاخمة نورمندي من الشمال وهي ذات موقع حسن في منخفض فسيح عند ملتقى نهرين يحيط بها من كل ناحية سهول مخصبة في غاية الجمال وكانت محصنة بالاسوار والابراج من عهد اسلاف وليم امراء نورمندي وكان الدير المبني على اسم وليم كبيرًا جدًا وقد انشئت داخلهُ قلعة سامية كثيرًا ما سكنها وليم ومتيلدا في ايامهما المستقبلة ومع ان اسوار مدينة كاين وحصونها قد اصبحت اليوم ركامًا مركومًا فكثير من ابنية ذينك الديرين لا يبرح قائمًا يساور بواعث الاضمحلال والفناء . وينازعها الخلود والبقاء . على ان هذا الباقي منها لم يعد مستعملاً لما بني لهُ لكنهُ لا يزال محفوظًا فيهِ اسمهُ الاصلي وكثيرون من السياح والزائرين يحجون الى تلك البقايا القديمة ويحنون بملء الشوق الى ما يتبينونهُ بواسطتها من مجد بانييها الخالي ويكرمون هذا التذكار الجليل الباقي لها الى هذا اليوم

ثم قضى وليم ومتيلدا ما شاء الله من الزمان في صفاء العيش ونعيم البال واول مولود رزقاه كان ذكرًا وذلك بعد زواجهما بسنة فدعاه وليم باسم ابيهِ روبرت ثم رُزقا بعده عدة اولاد وكانت اسماؤهم روبرت ووليم روفوس وهنري وميسيليا واغاثا وكونستانس وادلا وادلايد وغندرد . فوقفت متيلدا حياتها على تربيتهم وتهذيبهم بامانةٍ ومحبة والديتين

حتى ان اكثرهم عاشوا وخلدوا لهم في صفحات التاريخ اثارًا مأثورة. واسماء بالشهرة مذكورة. وقد تسنى لوليم ان نال ما كان مطمح ابصاره. ومبعث اشغال افكاره. الا وهو الاتحاد مع حكومة فلندرس التي كان يتولاها حموه ابو متيلدا فصارت الحكومتان كانهما واحدة بداعي ذلك الرباط الطبيعي (الزواج) الذي جمعهما الى وحدة متينة في القوة والنفوذ والعظمة بحيث اصبحت كل منهما ظهيرة الاخرى ونصيرتها عند مسيس الحاجة وان يكن قد حدث فيما بعد ذلك ما خيب امل وليم من هذا الاتحاد وعاد عليه بخلاف المنتظر. وذلك انه لما اخذ وليم يتأهب لمهاجمة انكلترا ارسل الى بالدون اخي امرأته متيلدا (الذي كان حينئذ اميرًا على فلندرس عوضًا عن ابيه) يطلب منه اعداد قوة يمده بها. اما بالدون فهالة هذا الطلب واوجس منه خوف الاقدام على خطر عظيم كهذا فارسل الى وليم يطلب منه معرفة النصيب الذي يعينه له من بلاد الانكليز اذا ضافره على تدويخها فاستدل وليم من هذا الاشتراط العاجل على تغير قلب ابن عمه عنه وعدم ركونه اليه واذ ذاك اخذ رقًا وطواه بدون ان يكتب فيه شيئًا على هيئة كتاب وكتب على ظاهره ما معناه

اما النصيب الذي ارسلت تطلبهُ   من البلاد التي في الحرب نغنمها
فانظر الى داخل التحرير حيث ترى   عنهُ التفاصيل تتلوها فتفهمها

وفي الحال انفذ اليه هذه الرسالة الفارغة مع رسول فلما راها بالدون اندفع بمزيد الاهتمام الى استلامها وفضها بشوقٍ فائق لكنهُ أُسقط في يده اندهاشًا حين وجدها خاوية خالية وبعد ما قلبها ظهرًا لبطن بغية الوقوف على تفاصيل نصيبه استطلع الرسول طلع الامر فاجابهُ «المراد منها كما انهُ ليس فيها شيء كذلك انت لا يكون لك شيء»

على انهُ مهما يكن من الفتور الذي اصاب الصلات على اثر هذه الحادثة لم تلبث ان عادت العلاقات الى متانتها ورجعت المياه الى مجاريها ونال وليم شيئًا من مساعدة حكومة فلندرس حين حمل على انكلترا

الفصل السادس

الاميرة أما

لم يكن في الحسبان حتى في نفس الوقت الذي نؤرخ الان حوادثهُ ان اميرًا مثل وليم

يهاجم مملكة عظيمة كانكلترا واسعة الاطراف قوية الجانب بالنسبة الى امارة نورمندي لو لم يكن لدى وليم حجة ولو على سبيل الادعاء . اما حجتهُ فكانت انهُ هو الوريث الاصيل لعرش انكلترا وان الملك الذي تربع على دست مملكتها في زمان مهاجمتهِ لها كان مغتصبًا ولكي يفهم القارئ طبيعة هذا الطلب ومبدأ هذه الحجة رأينا من الضروري ان نبسط الكلام قليلاً عن تاريخ أما

فمن مراجعة سلسلة امراء نورمندي المثبتة في الفصل الثاني من هذا التاريخ يظهر ان أما كانت ابنة رتشرد الاول وقد اشتهرت في ريعان صباءها بحسن صورتها وجمال منظرها حتى كانت تدعى لؤلؤة نورمندي . وقد تزوجت باحد ملوك انكلترا المدعو اثرلد ايام كانت تلك البلاد مجروفة بسيول حرب اهلية بين حزبي السكسون والدانمرك وكان فيها سلسلتان مختلفتان من الملوك تتنازعان السيادة وتتزاحمان الى الاستيلاء على قضيب السلطنة المطلقة وفي تلك الحرب الدائمة كان السكسون ينتصرون تارة والدانمرك اخرى واحيانًا يقيم كلٌ من الحزبين لنفسهِ هيئة حاكمة ويناصب الاخر في التملك على اقسام مختلفة من تلك الجزيرة الكبيرة العظيمة . وهكذا اتفق انهُ كان في انكلترا في وقتٍ واحد يقوم ملكان يساور كلٌ منهما الاخر ويناظرهُ في السطوة والحكم — ملكان وعاصمتان وادارتان — لشعب واحد قضى عليهِ نكد الطالع ان يرزح تحت اثقال المطامع ويكابد ويلات الحروب الناتجة عنها . وكان اثرلد احد ملوك السكسون وعند ما اقترن بأَما كان ارملاً في سن الاربعين ولهُ من امرأتهِ الاولى اولاد من جملتهم ابن يدعى ادموند وهو شاب نشيط الهمة قويُّ العزم صار فيما بعد ذلك ملكًا وكان من جملة ما قصده اثرلد باقترانهِ بأَما ان يعزز جانبهُ ويزيدهُ مناعة بضم النورمنديين اليهِ لان اعداءه الدانمرك نورمنديون ايضًا فحذرًا من ان حكومة نورمندي تمدهم بالقوة والرجال سبق الى التقرب منهم وعقد معهم زواجًا مكنهُ من اكتساب قرابتهم ومساعدتهم اياه على اعداءه

فنجح فيما قصد واستنهض رتشردًا بازوجته الى شد ازره لكنهُ لم ينصر على الدانمرك بل بالعكس استظهر الدانمرك عليهِ وضايقوهُ حتى اضطروهُ ان يفر الى نورمندي بزوجتهِ وابنيهِ وكان اسماهما ادورد والفرد فاستقبلهُ رتشرد الثاني اخو اما بلطافةٍ فانهُ لا يستحق شيئًا منها ولم يكن بالامر الغريب انهُ طرد من مملكتهِ لانهُ لم يكن على شيء من تلك الصفات العقلية السامية التي تؤهل الانسان للحصول على قوة الغلبة والحكم . بل كان كبقية الظلام الخاملين يضحي الحكمة على مذبح الشراسة والقساوة ويسرف بالقوة في طريق الجور والاعتساف ضد

اعداءه . وحالما تزوج باما اشعر بعظم القوة التي توهم الحصول عليها بداعي تلك الزيجة فمني الدانمرك بمجزرة هائلة في يوم معين بواسطة مؤامرة سرية اهلك فيها منهم خلقًا كثيرًا فاشتد البغض ونما الحقد بين الحزبين حتى ان انديين تلقوا منه اوامر اتمام هذه المذبحة الدموية انفذوها بقساوة وحشية تشيب لهولها الاطفال فمن جملة فظائعهم فيها انهم طمروا النساء في حفر الى اوساطهنّ واطلقوا عليهنّ الكلاب فمزقت اجسادهنّ العريانة واماتتهن المًا ووجعًا . ومن عجيب ما اتفق في تاريخ هذه الحرب الاهلية ان الملك الفرد الملقب بالعظيم لما حارب الدانمرك في انكلترا وذلك قبل زمان اشرلد بمئة سنة عاملهم في استظهاره عليهم بمزيد الرقة وكرم الاخلاق وبهذه السياسة تغلب عليهم في النهاية اما اشرلد فبخلافه سامهم اشد القساوة وكانت النتيجة في الختام انه بعثهم على التألب ضده والخروج عليه طلبًا للانتقام والاخذ بالثار . حتى جلوه كما تقدم الكلام من انكلترا بمزيد الخزي والخجل والعار وكما مر بنا استقبله رنشرد ابن حميه بما لا يوصف من الترحاب والتأهيل جبرًا لخاطره المكسور واكرامًا لشقيقته اما وولديها وقد كانت رغبة أما في الاقتران باشرلد موقوفة به على حب الشهرة والطمع بنوال المجد حين تصبح ملكة انكلترا وهذا ما يحكم به عليها كل قرّاء تاريخها من مجرد اطلاعهم على سيرة حياتها التالية . اما الان فساءها اخفاق مساعيها وخيبة امالها اذ وجدت نفسها انها عوضًا عن ان ترفد بواسطة زوجها وترتقي الى ذروة السعادة التي عللت نفسها بالحصول عليها اصبحت مضطرة ان تنكفئ راجعة الى وطنها السابق مستعمدة وقد اضافت الى حملها على بيت ابيها حمل زوجها وولديها وقد زاد طينتها بلة واضاف الى ذلها ذلاً موت ابيها وتقلص اعتبارها وانحطاط مكانتها لدى اخيها الذي ليس عليه حق شرعي ان يعولها مع انه لم يقصر في اكرام كل منها وزوجها وولديها وكانت تلك الحروب التي قضت على اشرلد بالفرار الى نورمندي لا تزال قائمة على قدم وساق حتى مالت كفة النصر نحو السكسون وتوفي على اثرها ملك الدانمرك الذي استولى على العرش بعد جلاء اشرلد فاسترجع السكسون قوتهم السابقة وارسلوا يطلبون اشرلد ليكون ملكًا عليهم بشرط انه يغير سلوكه القديم في الحكم والادارة . اما هو فكان مع أما بغاية التلهف لاعادة مجدهما الغابر على اية طريقة كانت ولهذا ما ابطأ ان رجعا الى لندن حيث بايع الحزب السكسوني اشرلد الملك ثانية

اما الحزب الدانمركي فلمّ شعثه وقوّى ضعفه واقام له ملكًا يدعى كانيوت ثم شبت نار القتال بين هذا الملك الجديد واشرلد اما كانيوت فكان رجلاً حاذقًا فهيمًا وغاية في

الشجاعة والاقدام بعكس اشرلد فانهُ رغماً عن جميع مواعيده ظلّ متناهيًا في الخمول والبلادة واية في القساوة والجبن و بالحقيقة ان ابنهُ ادموند الذي من امراته الاولى كان اقدر منهُ على مقاومة كابوت نظرًا لما حصلهُ من الفطنة والذكاء واشتهر بهِ من القوة وثبات القلب حتى انهُ ساد على ابيهِ في بعض الاعتبارات ومنها انهُ في غضون تلك الاضطرابات سخط الملك اشرلد على احد اشراف مملكته لاسباب فحكم عليهِ بالقتل وزاد على هذه الفظاعة ان سبى ارملتهُ المسكينة وهي في ريعان صباها وجمالها الى احد الاديرة فذهب ابنهُ ادموند الى الدير واطلقها واتخذها لهُ امرأة فبواسطة وقوع هذه المعاكسة بين الملك وابنهِ الذي كان اكبر قواد جيوشهِ اصبح امل نجاتهِ امام كابوت الدانمركي ضعيفًا. وفي الواقع كانت الاحوال تزداد سوءًا وتعاسة وأما تجرع من وقت الى اخر غصص القهر والكدر وتنذر نفسها بتعاظم الويل وتعاظم الخطر. حتى توفي اشرلد سنة ١٠١٦ و بموتهِ امتلأَت كاس شقاوتها وانطمست معالم سعادتها. اذ لم يكن لاحدٍ من ولديها ادورد والفرد حق التملك عوضًا عن ابيهما بداعي ان ادموند ابن امرأة اشرلد الاولى كان اكبر منهما. وكانا كلاهما اصغر من ان يركنا الاهوال ويشهد المعارك ليجعلا لهما مكانة واهتمامًا في عيون الشعب ثم ان ادموند نفسه اذ كان مزمعًا الان ان يصير ملكًا لا يسر بتقدمها ولا يرى لهما اكرامًا ولا يعتبرهما و والدتهما سوى مقاومين لهُ و بالاختصار رأت اما ان مقامها في انكلترا اصبح محفوفًا بالمخاطر فهربت بولديها مرة ثانية وجاءت بريد اليأس والفاقة تطلب لها ملجأً في بيت اخيها في نورمندي وقد امست الان ارملة و ولداها يتيمين. وكانا غلامين صغيرين واكبرهما ادورد الذي تعلقت بامال التقدم وتحولت اليهِ مطامع الترقي كان هادئًا رزينًا تلوح عليهِ بعض مخايل الشجاعة وتستتر من محياه انوار تؤذن ببسط الامل بتوقع شيءٍ من الاقدام منهُ على كبار الامور وعظائمها

ولكن اخاه ادموند اصبح الان ملكًا في علاء شانهِ وابان شجاعتهُ وثباتهُ وعليهِ ادلة ترجح انهُ سيعيش ويعمر طويلاً وعلى فرض مساحاة كارث بعقل اخترامهُ ويؤدي بحياتهُ فليس من رجاءٍ لأَما انها تعود تحدها المصرم وعزها البائد بداعي ان ادموند كان متزوجًا ولهُ ابنان فيحلهُ احدهما بعد وفاتهِ فمن كل جهة نرى ان نكد الطالع قد قدّر لأَما ان تصرف باقي حياتها مع ولديها بالذل والفاقة والاهمال. على انهُ «ربما العسر اذ دارت مياسير» فان النهاية كانت بالخلاف كما سيجيءُ. فان ادموند لم يملك اكثر من سنة حتى اغتيل مخاتلةً وفي مدة تلك السنة كان يرى ان كابوت الدانمركي اخذ في التغلب عليهِ والاستيلاء

[illegible] بينما بعد [illegible]

ادموند يسأل كانيوت [illegible] ويطلب منه [illegible] [illegible] العساكر [illegible]

بينهما [illegible] كانيوت [illegible] ولكنه ارتأى طرح المسألة امام جملة

من كل من امراء ورؤساء الحربين وكان الامر [illegible] العام قسمت البلاد بين الملكين

واستبدلت الحرب بنوع من السلم وبعد هذه المهادنة بقليل قتل ادموند

فاسرع كانيوت بدون امهال واستولى على كل المملكة محتجاً بانه كان من جملة [illegible]

بينهما ان المملكة [illegible] منقسمة بين الملكين ما دام كلاهما في قيد الحياة وعند موت احدهما

[illegible] الى الحي على قسمه فلم تقم حجة ما لدى قواد السكسون لكنهم وجدوا انفسهم

لا يقوون على مقاومته لان ابني اتلرد من اما كانا لا يزالان قاصرين عن الاقدام على القيادة

وبنو ادموند كانوا اطفالاً فلم يكن من فيهو الاهلية ليصير زعيم السكسون وقائدهم العام

[illegible]

قصير وعليه رأوا من الحكمة ان يتغاضوا مساحين في حقوق بني ادموند برهة يسيرة ووكلوا

اليه المناظرة عليهم حتى يبلغوا اشدهم وفي الوقت ذاته سمحوا له ان يبقى متوليًا بنفسه زمام

الحكم على كل البلاد

فقام كانيوت يدبر شؤون الاحكام ويعمل على اتساع نطاق نفوذه بغاية الضبط على

وجه السداد والانصاف متعمدًا في سائر الاحوال والطرق صيانة حقوق السكسون

وامتيازاتهم بنوع لا يجعل بينهم وبين الدانمرك ادنى فرق وكان يخشى على حياة بني ادموند

عنده لكن السياسة التي اختطها للسير والتصرف خولت السكسون راحة واطمأنانًا من نحوهم

وبالواقع لم يسيء اليهم بل ارسلهم الى بلاد الدانمرك لكي ينسى امرهم على التمادي ولعله اراد

بذلك انه اذا دعت الحاجة يدبر هناك طريقة سرية لهلاكهم وكان لديه سبب آخر يحدوه

على رقابتهم ويحول دون اغتيالهم وهو ان هلاك بني ادموند لا يميت حق السكسون في

الملك بل يحوله الى ابني اما في نورمندي اللذين يترقبان الفرص للقيام على منازعته

واغتصاب الملك فكان من باب الحكمة ان يبقي اولاد ادموند احياء ويجلبوهم الى حيث

يأمن الاهتمام بهم

اما احتسابه من جهة ابني اما فكان على غير طريقة فانه لكي يسقط حقيهما في الملك

ويضعف قوتهما ارتأى ان يطلب الاقتران بوالدتهما وبذلك يجعل عائلتهما تحت قبضة يده

ويحول دون قيام اصدقاءها النورمنديين ضدهُ . وبناء عليهِ طلبها وهي لشدة طمعها في استرجاع مقام عظمتها السابق كملكة انكلترا اجابت طلبهُ بلا تردد . وإن العالم ليديها على تزوجها للمرة الثانية بمنازع اشدّ وعدو الدّ لزوجها الاول ولكن لم يكن ذلك ليهمها البتة بل قصارى ما احتفلت بهِ ان تكون ملكة سواء كان زوجها سكسونيًا او دانمركيًا . فاستاء ابناها من هذا الاقتران وبذلا جهدهما في منعهِ ولم يصفحا لوالدتهما عن ارتكاب هذا الاثم الفظيع ولا غفرا لها تدنيها لتضحية صالحهما وحقهما وقد ملأها غيظًا ونكايةً ما تقرّر في عهدة الزواج من ان وراثة الملك بعد كانيوت تكون لمن يولد لهُ من أما التي ما لبست ان ودعت نورمندي وابنيها وشخصت الى انكلترا حيث احتفل بزفافها الى كانيوت بغاية التجلة والاحتفاء وخلا لها الجو مرة اخرى في ان تعود ملكة الانكليز . وقد اقتضت الضرورة الان ان نجتاز بكلمات وجيزة مدة عشرين سنة من الزمان وهي تحيط بوقت ملك كانيوت الذي كان غايةً في النجاح والسلام وفي خلال هذه المدة كان ابناء أما لا يزالان في نورمندي وقد ولد لها ابن اخر في انكلترا دعي كانيوت باسم ابيهِ لكنهُ يعرف في التاريخ باسم هارديكنيوت وهذه الزيادة كلمة سكسونية معناها قوي وكان لكانيوت وزيرٌ شهير يدعى غودون وهو رجل سكسوني واطئ النسب ولهُ في تاريخ حياتهِ قصة غريبة لا محل لايرادها هنا لكنهُ كان ممتازًا في الحذق والدهاء وسائر الصفات السامية وفي وقت موت كانيوت كانت لهُ الاسبقية على جميع رجال الدولة في الوجاهة والنفوذ اما كانيوت فلما حضرتهُ الوفاة ووجد ان شمس حياتهِ قد مالت بهِ الى الغروب وانهُ من الضروري ان يرتب امر الخلافة رأى ان الاحوط لهُ السعي في اخراج معاهدتهِ مع أما السابق ذكرها من القوة الى الفعل على ان هارديكنيوت الذي بموجب تلك المعاهدة يحسب خلفًا لهُ كان عندئذٍ ابن ست او سبع عشرة سنة وبالنتيجة قاصرًا عن ادارة احكام المملكة وبناء عليهِ اوصى بالملك لابن أكبر يدعى هارلود رُزقه قبل اقترانهِ بأما وهذا كان مبعث انشقاق جديد ومدعاة قلق حديث لان ميل السكسون وكذلك اصدقاء أما كان نحو هارديكنيوت بينما كان الدانمرك يميلون لهارلود اخيرًا انتصر غودون لجانب هذا الاخير فتثبت هارلود على العرش وتركت اما وجميع اولادها الذين ولدوا لها من اثلرد وكانيوت في زوايا الاهمال والنسيان

فهذا التغيير الفجائي الذي طرأ على أما لم يكن ليرضيها البتة فلبست في انكلترا وقد ساءها جدًا ان ترى زوجها الثاني قد خان عهده معها ونكث بوعده لها من جهة عهد

الخلافة لمن يولد لها جديدًا وكما انهُ اغفل ابنهُ المولود لهُ منها وقدم عليهِ ابنهُ المولود لهُ سابقًا هكذا هي ايضًا تركت الاعتناء بامر هارديكينبوت وطفقت تسعى سرًّا بين السكسون في تقديم ابنها ادورد وترشيحهِ للعرش حتى اذا رأَت نفسها انها مهدت لهُ السبيل اللازم بعثت برسالة الى ابنيها في نورمندي مفادها ان الشعب السكسوني لم يعد يستطيع الصبر على تحامل الحكومة الدنمركية وجورها ومن رأيها انهم (اي السكسون) مستعدون لخلع الطاعة الدنمركية متى وجدوا لهم زعيما وقائدًا وعليهِ طلبت منهما ان يأْتيا لندن للمداولة معها بهذا الشان وقد اشارت عليهما ان يحضرا بطريقة سلمية بسيطة متجنبين كلما من شأْنهِ ان يثير القلاقل ويوقظ ساكن البلابل فلما وقفا على كتابها ارتضى اكبرهما ادورد ان يذهب الى لندن لكنهُ احب ان اخاهُ الفرد يقدم على هذه المهمة ان اراد فاجابهُ الفرد الى ذلك وفي الواقع ان هذين الاخوين كانا على اختلاف عظيم في المنازع والمشارب فادورد كان هادئًا رزينًا متأَنيًا واما الفرد فكان حاد الطبع طموح النظر وعليهِ وطن الاصغر نفسهُ على ركوب اخطار السفر والاكبر عوّل على البقاء في نورمندي وكانت النتيجة من ذلك شرًّا وبلاء فان الفرد خالف مشورة والدتهِ وساق معهُ جيشًا من النورمند وقطع بهم البوغاز زاحفًا نحو لندن فجرّد عليهِ هارلود قوة عظيمة اعترضتهُ في الطريق فحاصرتهُ واخذتهُ وجميع من معهُ اسرى ثم حكم عليهِ بقلع عينيهِ لكنهُ ما عتم ان مات بعد صدور ذلك الحكم الهائل بسبب ما اعتراهُ منهُ آلام الحمى ناهيك عن تاثير القهر والسقوط في يده خيبةً وفشلاً فهربت أُمّهُ الى فلندرس واخيرًا مات هارلود وخلفهُ هارديكنبوت الذي لم يحكم الا وقتًا قصيرًا حتى مات ايضًا غير مخلف وريثًا للملك واذ كان في ذلك الوقت اولاد ادموند ابن اثلرد الاكبر في هنكاريا وامرهم على نوعٍ ما منسي ظهر جو الخلافة كانهُ خالٍ من منازع لادورد ابن أُمّها الاكبر الذي كان باقيًا في نورمندي لا يبدي حراكًا وبموجبهِ صرّح بهِ ملكًا وذلك سنة ١٠٤١ وظل مالكًا نحو عشرين سنة وقد صاقب ابتداء ملكهِ وقت تربع وليم الظافر على دوكية نورمندي ولا ريب ان ادورد كان قد تعرّف بوليم في اثناء وجوده ذلك الوقت الطويل في نورمندي وقد زاره وليم ايضًا الى انكلترا بعد ما صار عليها ملكًا ومما لا ريب فيهِ ايضًا ان وليم اعتبر نفسهُ وارثًا لادورد من وجه انهُ لما كان ليس لادورد من اولاد وان كان متزوجًا يكون الامراء النورمند اقرب انسبائهِ وقد ادعى ان ادورد وعده بانهُ يوصي لهُ بحق الملك بعد وفاتهِ وكانت أُمّا قد شاخت وتقدمت في الايام وانكسرت فيها شوكة قوة الطمع في الشهرة وحب الرئاسة التي تسلطت عليها في ماضي

حياتها لانهُ كان لها زوجان وابنان كل منهم ملك انكلترا لكنها عند ما تناهت بها الايام وادركها الانحلال رأت نفسها صرعى الشقاق وتعاسة الحال . ولم يكن ابنها لينسى جريمتها الفظيعة التي ارتكبتها في هجرها لهُ ولاخيهِ واقترانها بمن كان الدّ عدو لها ولابيهما وانفاذها لما تعهدت بهِ يوم زفافها الى كانيوت من حرمانهما الوراثة الملكية وفضلاً عن ذلك تخلت عنها بمزيد الاهمال وعدم الاكتراث في ايام زوجها كانيوت بينما كانت هي نفسها عائشة معهُ في لندن على سعة الرغد ورحب الابهة والعظمة وقد شكاها ايضًا بانها كانا تقلب جفنيها ناظرة الى موت اخيهِ الفرد ولذلك اصدر امرًا بمحاكمتها في هذه الدعاوي العريضة على النار وتلك طريقة كانوا يمتحنون بها المتهمين بالجنايات والجرائم بان يضعوا على ارض كنيسةٍ قطعًا من حديد محمية الى درجة البياض وعلى بعد معين بين بعضها البعض ويشير والى المشكو عليهِ بالمشي عليها بقدمين حافيتين معتقدين بانهُ ان كان بريئًا فالعناية الالهية ترشد خطواتهُ وتقيهِ من مس قطع الحديد فيجتازها آمنًا وان كان مجرمًا يحترق وقد نقل عن رواة حوادث ذلك الوقت ان أما حكم عليها بهذا الامتحان في كنيسة ونشستر الكاتدرائية لمعرفة ما اذا كانت عالمة بقتل ابنها وسواء صدقت هذه الرواية اولا فليس من ريب في ان ادورد حكم عليها بالسجن في دير ونشستر حيث اكملت ايامها متجرعة غصص الذل والهوان

ولما رأى ادورد ان الموت صار منهُ قريبًا على الابواب اخذ يهتم في امر الخلافة وكان لها وريث من اخيهِ ادموند الذي يذكر القارئ ان كانيوت نفى اولاده الى بلاد الدنمرك ليتخلص من منازعتهم لهُ وهذا الخلف كان لا يزال حيًا في هنكاريا واسمهُ ادورد وهو الخليفة الشرعي للعرش ولكن قد صرف حياتهُ متغربًا بعيدًا عن وطنهِ وفي الوقت ذاتهُ كان الامير غودون الذي مر الكلام على نهوضهِ من بيت سكسوني دني الشان الى اعلى مقام في المملكة قد احرز سطوة مكينة ونفوذًا بينًا فظهر بهما امنع جانبًا من ذات الملك وقد مات اخيرًا لكن ابنهُ هارلود الذي تأسلهُ بالبسالة والاقدام وثبات الجنان خلفهُ في القوة وتراءى كما ظن ادورد انهُ يطمع في المستقبل نحو اغتصاب العرش وكان ادورد يكره غودون وعائلتهِ كرهًا شديدًا وصار الان يتخذ كل الاحتياطات التي تكفل لهُ احباط مساعي ابنهِ هارلود في الجلوس على تخت الملك وعليهِ ارسل يطالب حضور ابن عمهِ ادورد من هنكاريا ليرشحهُ للملك من بعده ويخذل هارلود فجاء بعائلتهِ وكان لهُ ابن يدعى ادغر ولكنهُ لسوء الحظ لم يلبث ان توفي بعد حضوره الى انكلتره بقليل وابنهُ ادغر بعدُ صغير

لا فائدة من قيام الحكومة باسمهِ اذ لا تستطيع الثبوت ضد هارلود فلما رأى ذلك الملك ادورد وجه افكاره نحو وليم حاكم نورمندي الذي كان اقرب نسيب اليهِ من جهة أمهِ وتحقق انهُ يكون افعل وسيلةٍ لتخليص الملك من السقوط في يدي هارلود المغتصب وعلى اثر ذلك قامت مصادمات عديدة ومناضلات مختلفة فكان هارلود يفرغ جعبة الجد والسعي في الحصول على الخلافة وادورد يقضي مطايا المساورة والمقاومة في منعهِ عنهُ وتحويلها الى وليم النورمندي وكان النفوذ في البداءة لهارلود وفي النهاية لادورد ووليم

.

الفصل السابع

الملك هارلود

ان هارلود ابن الامير غودون الذي كان يسعى جهده في التبوُّء على العرش الانكليزي ووليم صاحب امارة نورمندي الذي كان يبارعهُ السعي ويزاحمهُ في الاقدام وان كانا قد عاشا على جهتين متقابلتين من البوغاز الانكليزي — الواحد في فرنسا والآخر في انكلترا — فقد كان لكل منهما معرفة شخصية بالآخر وذلك ليس لان وليم جاء مرة لانكلترا فقط كما تقدم الكلام في الفصل السابق بل هارلود نفسهُ قدم نورمندي في احد الايام وكان لقدومهِ هذا اعتبارات لا تخلو من الغرابة والتأمل فيما يبعث الفكر على الحيرة والاندهاش وذلك انهُ في ايام ابيهِ غودون حدثت مخاصمة بين غودون والملك ادورد وآلت الى حشد كلٍ منهما قواتهِ واصلاء حرب عوان هلك فيها من الجانبين عدد كثير واخيرًا تبين ان جانب غودون عزيز ومعداتهُ الحربية لا تقاوم وشوكتهُ القوية لا تقوى حكومة ادورد على كسرها واخضاعها وبعد مواقع مخيفة ومعارك هائلة بلت قسماً كبيرًا من البلاد بويلات حرب اهلية عقد بينهما صلح على شرط ان غودون يبقى حاكماً على اقسام معينة كان متوليًا سيادتها منذ وقت طويل على طريقة ادارية يعترف فيها بسيادة الملك

ادورد عليه وكان عليه لقاء ذلك ان يفرق عساكره المجمعة ويعد بعدم اشهاره حرب على الملك فيما بعد ويحقق وفاءهُ بما وعد بتقدم كفلاء.

اما الكفلاء المتقدمون في مثل تلك الاحوال فكانوا من الانسباء والاقرباء والاصدقاء الاعزاء وكان الغرض من تقديمهم فيما يرى انهُ اذا اخلف من يقدمهم وعده للمقدمين لهُ فهذا يسوقهم الى السجن ويسومهم اشد العذاب او يوردهم موارد الحتف بطرق تتنوع في تلطيف عقابهم وتعظيمهِ بالنسبة للبواعث الداعية الى اسرهم عنده وحسب درجة الغيظ الذي حرك سكونهُ في قلبهِ ثار حنيقي او وهمي على ان هذه الطرف الخشنة من المعاهدات قد انسخت الان وبطلت بالكلية وان كان جبين هذا التمدن الحديث لم يخلُ من لطخها السود في اول نشأتهِ وعهد حداثتهِ والذين كانوا ينتخبون كفلاء في ذلك العصر كانوا دائمًا صغارًا حديثي السن حتى تكون صعوبة فصلهم عن اهلهم واصدقائهم مؤلمة موجعة وكانوا يستودعون من هم الدّ الاعداء والخصوم لهم فينقطعون بهم الى الاماكن الموحشة المنفردة تحت حراسة الغرباء وهناك يقيمون مستمرين على ايجاس خوف اخلاف وعد وخرق عهدة تبعث على التنكيل بهم والاساءة اليهم وهكذا كانت الفظائع والجرائم المرتكبة ضد اولئك الابرياء غاية الهول حتى انهُ حدث في احدى المعارك بين الملك اثلر وكانيوت ان كانيوت لما اكره على الفرار من وجه اثلرد واضطر الى طلب الشواطئ البحرية ليركب السفن طلبًا للنجاة عمد الى بعض الكفلاء الذين كانوا مرهونين عنده من قبل الملك اثلرد فقطع ايديهم وارجلهم وجندلهم على رمال الشاطئ مخضبين بدماء قساوتهِ الوحشية نازعين من شدة آلام جريمتهِ البربرية

اما الكفيلان اللذان ذكر المؤرخون ان غودون اعطاهما للملك ادورد فكانا ابنة وحفيده واسماهما النوث وهو اخو هارلود وهاكبون وهو ابن اخيهِ واذا شنق ادورد من احتيال غودون على استرجاعهما اليهِ اذا ابقاهما في انكلترا رأى ان يبعث بهما الى نورمندي ويتركهما هناك تحت حراسة وليم فلما مات غودون طلب ابنهُ هارلود من الملك تسليمهما بدعوى انهما أُخذا ضمانة على ابيهِ وابوه الان لم يعد حيًا فلم يقدر ادورد ان يرفض تسليمهما رفضًا مطلقًا لكنهُ رأى ابقاءهما تحت سلطانهِ واجبًا بداعي ما نظره من هارلود من التأهب والاستعداد لجميع التقلبات التي تمكنهُ من ان يخالف اباه في كل شيء على انهُ لم يجد مناسبًا ان يعلن لهُ رفض تسليمهما على الاطلاق بل تعلل لهُ انهما في نورمندي وسوف يسعى جهده في اعداد الوسائل التي تمكنهُ من احضارهما على جناح الراحة والامان . فعوّل هارلود ان

يذهب بنفسهِ ويجيّ بها وعرض رايهُ هذا على ادورد الذي لم يعارضهُ فيهِ حسب الظاهر بل شحن جهدهُ في ان يثني عزمهُ بذكرا لمخاطر والاهوال التي تتهددهُ في الاقدام على هذا السفر وذكر لهُ منها ان وليم النورمندي رجل غاية في الدهاء والشجاعة فليس من الحكمة ان يخاطر بنفسهِ بالذهاب اليهِ ويتعرض لمصاعب بطشهِ وسطوتهِ والمقابلة في هذا الشان بين هارلود والملك ادورد مرسومة في مطرّز بايُو الذي مرّ عليهِ الكلام في الفصل الخامس .

ولم يعرف بالتحقيق اي تأثير احدثهُ انذار ادورد لهارلود في هذا الشان بل حدث بعدهُ ان هارلود اجتاز البوغاز الانكليزي الى نورمندي وقد تضاربت الروايات وتلونت الاحاديث المنقولة عن كيفية سفره هذا فقد روى بعضهم انهُ بينما كان يجول على التخم الانكليزي من البوغاز مع عصبة من اتباعهِ وحواشيهِ طلبًا للتنزه اذ هبت عليهم عاصفة شديدة قذفتهم الى شمالي فرنسا ويرجح ان هذه الرواية مجرد ادعاء فقط لان هارلود عقد نيتهُ على الذهاب ولكنهُ لم يشاء ان يفعلهُ ظاهرًا تفاديًا من تغلظ خاطر ادورد عليهِ فادعى ان الرياح ساقتهُ الى نورمندي مرغومًا ضد ارادتهِ وفي كل الاحوال حدوث تلك العاصفة كان صحيحًا سواء كان سوقهُ بقوتها الى الشطوط الافرنسية حقيقةً او ادعاء فانها حملتهُ خارجًا عن طريقهِ وساقتهُ في عرض البوغاز الى شرقي نورمندي واخيرًا القت بقاربهِ الى الشاطئ بالقرب من مصب نهر سوم فكسرتهُ على انهُ نجا الى البر هو واتباعهُ وثمّ وجدوا انفسهم في حكم امير يتولى تلك التخوم يدعى الامير غوي ولقبهُ الكونت دي بونتيي

ومن شريعة تلك الايام ان السفن المنكسرة تصبح ملك حاكم البلاد التي انكسرت على شواطئها وليست السفن وبضائعها فقط بل ان جميع من فيها يصيرون عرضة القبض والاسر حتى يقدموا فديةً عن نفوسهم فهارلود اذ كان عالمًا بهذا اجتهد في ان يخفي امره ويسير حتى يبلغ نورمندي واذا بصيادٍ رآهُ من لباسهِ وهيئة منظره والمعاملة الخصوصية التي كان اتباعهُ يعاملونهُ بها تحقق انهُ رجل عظيم القدر والمكانة في وطنهِ فذهب الى الكونت مسرعًا وقص عليهِ الخبر قائلاً «هبني جائزةً فادلك على رجل يساوي مئة ضعف» فانحدر الكونت بحاميتهِ الى الشطوط والقى القبض على اولئك المنكودي الحظ واستولى على كل ما سلم من الامواج من امتعتهم واشياءهم وجاء بهم الى قلعتهِ في ابفيل وهناك اغلق عليهم الى ان يقدموا لهُ فدية عن نفوسهم

فاحتج هارلود ضد هذه المعاملة من وجه انهُ قادم الى حاكم نورمندي بامرٍ ذي شأن من عند ملك انكلترا وليس في امكانهِ ان يعاق عن اتمامهِ فلم يسمع لهُ الكونت كلامًا بهذا

الموضوع بل ظلّ مصراً على حبسو او يقدم الفدية فانفذ هارلود بلاغًا الى وليم بو يعرفه بنفسو ويطلب اليو انقاذهُ فارسل وليم الى الكونت يستدعي اطلاق الاسرى وكل ذلك بمثة على ان يتمكن في عزم عدم عتقهم وتعظيم قيمة الفدية التي يتوقعها لاجلهم ولم يزل عاملاً على ضبطهم وعدم تخلية سبيلهم حتى افتداهم وليم بمبلغ عظيم من الدراهم واضافة اقليم جديد الى املاك الامير غوي واذ ذاك أُطلق سراح هارلود ورجالو وجيء بهم الى مدينة روان بسلام حيث استقبلهم وليم بمزيد الحفلة والاكرام وانزلهم في قلعتو ضيوفًا مأهولاً بهم ما شاء الله من الايام واعد لهم المآدب والولائم . وجعل كل ايام نزولهم عليهِ اعيادًا ومواسم . وقال لهارلود ان رجوعهُ الى انكلترا موقوف على ارادتو . وامر الكفولين اخيو وابن اخيو اللذين جاء يطلبهما منوط باشارتو . على انهُ سألهُ ان لا يعجل في العود الى بلاده . بل يلبث عندهُ مدة ريثما يتمكن باتمامو من اكرام مرادهِ . فاجابهُ هارلود عليو . وبالغ في الشكر لهُ والثناء عليو

ومما لا يغرب عن ذهن المطالع ان هذه المظاهر الاحتفائية والمجالي الاكرامية التي اقامها وليم لضيوفو بملء الفرح والسرور بنيت على انهُ اتفق لهُ ان يصادف في بلادهِ اكبر المناظرين لهُ والمزاحمين في الاستيلاء على العرش الانكليزي وقد أُتيح لهُ بهذه الوسائل ان يكبر عليو امرهُ وينزع منهُ افكار المناظرة والمباراة وبالتالي يجعلهُ من اكبر مظاهريهِ ومناصريهِ ولذلك افرغ كنانة جهدهِ في توفير ذرائع سرورهِ وانشراحه في هذه الزيارة وطفق يعرض عليو موارد غنى البلاد ومصادر خيراتها وشرع يطوف بو متنقلاً من مكان الى آخر مستعرضًا عليو المدن والقلاع والحصون والاديرة واخيرًا هيأ موكبًا عسكريًا وطلب منهُ ان يركبهُ فيو برفقتو لزيارة بلاد بريتاني فسر هارلود مما صادفهُ من عظمة الاحتفال وبديع المناظر التي شاهدها وهكذا اتباعهُ فلم يكونوا اقل منهُ سرورًا لا سيما وقد انعم على كثيرين منهم بالقاب الشرف واكثر من منحهم الخيول المطهمة والرايات الفاخرة والاسلحة المتقنة وغيرها من الهبات والعطايا النفيسة بحيث استمال قلوبهم اليو وجعل افكارهم بكليتها متجهة نحو شكره والثناء عليو . واستولى على ارادتهم حتى غادرهم من اغنى الرجال لديهِ . وكانت بريتاني المقصودة على تخوم نورمندي الغربية فاجتاز وليم اليها بضيوفو في عرض البلاد النورمندية على غاية الابهة والجلال وكان مع هارلود في غضون تلك المدة بكمال الصداقة والمودة . فكانا ينامان في خيمةٍ واحدة وياكلان على مائدة واحدة وكثيرًا ما ظهر في اثناء ذلك من هارلود من آيات البراعة في الفروسة ومخايل الشجاعة في حوادث مختلفة عرضت

لهم في بريتاني وكل ذلك زاد وليم رغبةً في استمالتهِ اليهِ. واكتساب قوة الاستناد عليهِ. والا فعلى الاقل تجنب معاداتهِ ومناظرتهِ وفي رجوعهما الى نورمندي وجد انهُ قد حان وقت شروعهِ في اخراج مقاصده من حيز القوة الى دائرة الفعل وعليهِ عوَّل على مطارحة هارلود الكلام في شأن رغائبهِ وطلب مساعدتهِ في انفاذها

ويروي المؤرخون ان وليم كاشفهُ الامر يوم كانا راجعين من تطوافهما بعد ما اخذا في الطريق باطراف الاحاديث المستطيلة على التبادل عن انواع الحروب وضروب الحصار وطرق النجاة وغير ذلك مما يتعلق بذكر المواقع التي يقدم عليها الابطال والتي كانت موضوع المحادثة في ذلك العهد حتى اذا شعر بانهُ احسن التوطئة والتمهيد للدخول في ذلك الحديث ذي الشجون انتقل باسلوب لطيف الى الافاضة في موضوع العرش الانكليزي ووشك موت صاحب تاجه وعندها اخبره بالمعاهدة التي بينهُ وبين الملك ادورد الذي وعدهُ بان يكون خليفة لهُ من بعده وصرَّح لهُ فوق ذلك بانهُ متكلٌ على مساعدتهِ في تسهيل التربع على دست المملكة ولهُ منهُ على هذه المساعدة اعظم جائزة واكبر اكرام وزاد على ذلك قولهُ لهُ ان المناظر الوحيد هو الولد ادغر وليس لهُ من قوةٍ او عصبةٍ تشد ازره وتلبي طلب الحصول على حقهِ وعليهِ فالقوات الحربية والمعدات العسكرية هي في يديهما وحدهما وكلاهما ان اتحدا معًا يستطيعان الاستيلاء على تخت انكلترا من ارادا

فاصغى هارلود الى هذه الاعبارات متظاهرًا بابانة استماعها ومتلبسًا بمسرة الوقوف عليها وقد كان بالحقيقة ملتذًا بها ولكنهُ لم يكن مسرورًا لانهُ اراد تخليص الملك لنفسهِ ولم يكن يقنعهُ الحصول على قسمٍ منهُ مهما كان عظيمًا وكبيرًا على انهُ تحرَّز جهده من اعلان عدم مسرتهِ وادعى الموافقة لوليم في مرتآه واعترف برغبتهِ السديدة في ممالأتهِ عليهِ وجاهر في استعدادهِ لاجل تحقيق القول بالفعل. فعظم في عيني وليم نجاحه في مسعاه وسرَّ سرورًا لا مزيد عليهِ في توفيقهِ الى بغيتهِ حسب اعتقادهِ اما هارلود فعول في الداخل على الاسراع في الرجوع الى انكلترا ليسعى في ارتياد الذرائع وتطلب الوجوه التي تمهد لهُ الجلوس على العرش الانكليزي بنفسهِ دون اعتبار للمواعيد التي وعد بها وليم

على ان وليم لم يكن ليكتفي بالمواعيد وترضيه العهود المجردة وللحال شرع في تهيئة ما يمكنهُ من ارغام هارلود على انفاذها وذلك بان دبر الطرق المصطلح عليها في تلك الايام لاجل ضمانة الوفاء بالعهود المقطوعة بين الامراء وكانت ثلثًا — مبادلة الزيجة وتقديم الكفلاء والاقسام العظيمة

فارتأى وليم للاولى عقد زيجتين تمكيناً للاتحاد المنوي بينهُ وبين هارلود وذلك بان يعطي هارلود احدى بناته لوليم ووليم يزوجها واحدًا من كبراء قومهِ فتكون تحت سلطتهِ معتبرة كرهن او كفالة الا بالاسم وهذا قبل بهِ هارلود والعقد الثاني كان بين ابنة وليم وهارلود نفسه

ولكن اذ كانت تلك الابنة بعد ولدًا لا تتجاوز السبع سنين اتفق على خطبتها فقط وهذ صدق عليهِ هارلود ايضًا واحتفل للحال بوضع عربون بحضور جم غفير من الاعيان على مزيد البهرجة والاحتفاء كانها زفاف حقيقي وكان اسم الخطيبة ادلا

ومن خصوص الكفلاء فقد عول وليم على ان يبقي عندهُ واحدًا من الاثنين اللذين يذكر القارئ مجيء هارلود الى نورمندي لاجل اخذهما فقال له وليم برجع بابن اخيهِ هاكيون واما اخوه النوث فينبغي ان يبقى الى حين يقدم وليم على انكلترا لاستلام الملك فيحضره معهُ

فساء هارلود ان يترك اخاه هكذا تحت سلطة وليم ولكنهُ اذ كان موقنًا ان اجازة الرجوع لهُ نفسهُ تتوقف على عدم ابدائهِ ادنى معارضة يوجس منها وليم اقل ريب فيهِ قبل مكرهًا وسلم ببقاء اخيهِ النوث ايضًا

وفي الختام عقد وليم مشهدًا حافلاً باعظم الامراء والسادة والاعيان واشار الى هارلود ان يقسم على مرأى ومسمع منهم باليمين المعظمة انهُ يقيم بوعده ويبرّ بعهده فامتثل هارلود اشارتهِ عادًا نفسهِ مضطرًا لذلك غير مختار وانهُ في قبضة وليم فكلما يتقلده يكون فقط عبارة عن وسيلة التخلص من الاكراه والعود الى الحرية المطلقة وبالنتيجة فاقسامهُ باطلة فارغة وعليهِ عزم ان يتم كلما يعرضهُ وليم

وبوجهِ أُقيمت حفلة عظيمة وفي الوسط وُضعت منصة مغطاة بملاءة ذهبية يعلوها كتاب خدمة الكنيسة الكاثوليكية (الميسال) مكتوبًا بمزيد الاتقان على رقّ تم فتح هذا الكتاب فصل من الاناجيل التي وهي قسم من الكتب المقدسة كانت تعتبر في تلك الاعصار ان لها قوة فائقة العادة على اكساب القسم هيبة القداسة

فاعترى هارلود شيءٌ من الريب حينما تقدم الى بهرة ذلك المنتدى الحافل بالكبراء والعظماء ليعيد وعوده لوليم على مسامعهم امام الله ويعرّض نفسهُ لمسئولية النكث بها التي اقل ما فيها مجازاتهِ بلعنات القادر على كل شيء . ومهما يكن من ايجاسهِ وارتيابهِ فلم يعد في استطاعتهِ العدول والانسحاب فدنا من كتاب الصلاة المفتوح ووضع يده عليهِ واقسم انهُ يقوم بالاشياء الشتة المطلوبة التي املاها عليهِ وليم من على سريره وهي اولاً . ان يبذل

غاية جهده في مساعدة وليم على تولي العرش الانكليزي وثانيًا . ان يقترن بابنة وليم ادلا حالما تبلغ سن الزواج وثالثًا . ان يرسل ابنتهُ من انكلترا الى نورمندي لكي تزف الى واحدٍ من اشرافها

وبعد الفراغ منها امر وليم فرفع الكتاب والغطاء الذهبي واذا على المنصة سفط (صندوق صغير) يحتوي على ذخائر مقدسة كان وليم قد جمعها سرًّا من الاديرة والصوامع في بلاده الى هذا المخباء خفيةً عن هارلود لكي يضاف تأثيرها الرهيب الى فعل فصول الانجيل الشريف التي في كتاب الخدمة (ميسال) وهذه الذخائر كانت بقايا عظام محفوظة على زعم الرهبان من رسل المسيح وقطعًا خشبية صغيرة باقية من صليب يسوع او من اكليلهِ الشوكي وقد ذخرت هذه الاشياء بمزيد التجلة والتكريم في خزائن الاديرة والكنائس في هاتيك الايام وكان لها عندهم من الاحترام والخوف ما يكاد يشب عنهُ طوق ادراكنا . فاجفل هارلود حينما رأى انهُ فعل ما قد فعل بجهل وقد هالهُ مجرد الافتكار بان مسئولية ما اقسم بهِ هي اعظم بما لا يقاس مما ظنهُ قبل الاقسام فندم ولكن لات ساعة مندم . وبعد ذلك ارفضت الحفلة وطفق هارلود يتأهب لمبارحة نورمندي ووليم يظنُّ انهُ قد امتلك قلبهُ واستولى على قوة ارغامهِ للقيام بجميع ما وعد بهِ . ولما ازف وقت رحيلهِ رافقهُ وليم الى شاطيء البحر وهناك شيعهُ بما يفوق الوصف من الاكرام وبالغ في تزويدهِ بالهدايا وهكذا اقلع هارلود من نورمندي وجاء انكلترا بسلام ومن ساعتهِ قام يجهز القوات ويعد الرجال تهيئًا للجلوس على العرش بنفسهِ فجمع الفرق وحشد الاسلحة والمعدات الحربية وفعل كلما من شأنهِ ان يستميل اليهِ الامراء والاشراف وحاول ايضًا استمالة نفس الملك ادورد نحوهِ واجتهد اقناعه بخذل وليم . فالملك ادورد اذ كان قد اصبح الان شيخًا عاجزًا كليل النظر والقوى وامسى الباقي في افكاره مشغولاً بالفروض الدينية او مشوشًا بذهول هرم حال دون افتكاره بما ستصير اليهِ حالة الملك بعده لم يعد يبالي سواء استولى هارلود او وليم على العرش باكثر من ان المالك منهما يسمح لهُ ان يموت بسلام

وكان قبل هذا الوقت قد عزم على زيارة اورشليم لكنهُ عاد اخيرًا وطلب من البابا ان يسمح لهُ لقاء هذه الزيارة ببناء كنيسة باسم القديس بولس غربي لندن على بعد بضعة اميال منها وقد دعيت فيما بعد ذلك باسم وستمنستر تمييزًا لها عن كنيسة منستر التي بنيت قبلها في وسط لندن باسم القديس بطرس . وتلك قد بنيت في ذات البقعة التي فيها الان دير وستمنستر وتم بناؤها في نفس الوقت الذي جرت فيهِ حوادث هذه المدة من تاريخنا

هذا واخذ الملك ادورد يستعد لتدشينها فدعا الجم الغفير من الاساقفة واصحاب الرتب العالية في الكهنوت من جميع انحاء البلاد ولكنهُ قبل الشروع في التدشين اصيب بغتةً بمرض فحمل الى غرفةٍ في قلعتهِ حيث انطرح متقلبًا على فراش الضنى والوجع وهو يراجع بين اليقظة والغيبة آيات كتابية تهذيبية كانت تخامر افكاره وقد كان في غاية التلهف على اجراء التدشين فصار الاسراع فيهِ ليتمجد باتمامهِ قبل موتهِ وفي اليوم التالي كان في غاية التهوُّر والانحطاط اما هارلود واصحابهِ فكانوا بمزيد الاشتياق ليسمعوا هذا الملك المفارق يعلنُ ميلهُ اليهم قبل وفاتهِ حتى ان مجيئهم وذهابهم ولغاطهم وضوضاء العساكر وصخب الجنود ازعجتهُ وكدَّرت صفاء آخر ساعة من حياتهِ فارسل اليهم ان يتخبوا من ارادوا ملكًا او دوقًا او اميرًا فلا فرق عنده وهكذا قضى نحبهُ

وإذ كان هارلود قد احكم التدبير واتقن التأَهب والاستعداد مال اليهِ عظماء المملكة وبايعوه في الحال وكان ادغر حينئذٍ في قصر الملك ادورد ولكنهُ كان اصغر من ان يقوم ويطلب حقوقهُ الارثية وبالواقع كان غريبًا وان كان معدودًا من سلالة الملك الانكليزي لانهُ تربى خارج انكلترا ولم يكن يستطيع حتى التكلم بالانكليزي ولذلك قبل غير متشكٍّ بهذه المظاهر حتى انهُ شاهد بنفسهِ تتويج هارلود الذي احتفل فيهِ بعد موت الملك ادورد بقليل في كنيسة القديس بولس في لندن اما هارلود فاجازه في الحال على هذا الرضى وعدم المقاومة بشرف لقب امير بعد التتويج وقبل الخروج من الكنيسة وقد منح ايضًا القابًا ورتبًا لكثيرين من اهل الطمع في الوجاهة والشهرة الذين اراد استمالتهم اليهِ وهكذا تراءى لهُ انهُ وطد اركان ملكهِ وثبت دعائم سلطتهِ وكان قبل ذلك قد اقترن باميرة انكليزية اغنى الوريثات في ذلك العهد وشقيقة اعظم اميرين في المملكة فهذا الزواج عظم نفوذه في انكلترا ومهد لهُ الوصول الى مبتغاه على ان انباء تملكهِ التي كانت ولا ريب قد بلغت مسامع وليم في نورمندي جعلت هذا يتوقع من نكث هارلود باحدى العهدات الثلث نكثًا بالعهدتين الباقيتين



الفصل الثامن

التأهبات

وكان الرسول الذي جاء وليم بخبر ارتقاء هارلود الى العرش رجلاً يدعى توستغ وهو اخو هارلود نفسهُ فانهُ مع كونهِ اخاً له كان الدَّ اعداءهِ وقلما يكون الاخوة اصدقاء في البيوت التي فيها تاج سلطةٍ يتنازعونهُ وعرش سيادةٍ يتسابقون اليهِ ومعلوم انهُ لم يكن في تلك الايام وسائل عمومية تؤدي الانباء وتنقل الاخبار وعليهِ فتوستغ علم بموت ادورد وتتويج هارلود بواسطة رقباء اقامهم في اماكن معينة على التخوم بداعي تغيبهِ وقتئذٍ عن لندن فلما بلغهُ الخبر قام يجد السير الى روان ليقص على وليم ما جرى ويغريهُ على القيام ضد اخيهِ وعند ما وصل روان كان وليم في بقعةٍ بظاهر المدينة يجرب قوساً مصنوعة لهُ جديداً وليس بخافٍ ان وليم كان رجلاً كبير الجسم قوي العضلات حتى انهُ كان مشهوراً بسهولة استطاعته على حمل قوس لا يقدر احد غيره ان يحنيها وقد كان قسم من هذه الشهرة عائداً الى ضروب الاطراء والتبجيل التي كان يرى اهل البلاط الملوكي استعمالها نحو الملوك من باب التحرز والدهاء على انهُ بغض النظر عن ذلك كان وليم في غاية الاستحقاق لان يمدح على حذاقتهِ العقلية وقوته الجسدية ومهارته في استعمال القسي وهذه التي كان يجربها عندئذٍ كانت مصنوعة بمنتهى المرونة والقوة وقد خرج بقواده الى تلك البقعة لكي يمتحن قوتها ويختبر فعلها فنادرهُ توستغ الى هناك وقص عليهِ الاخبار فتأثر وليم من استماعها تأثراً بليغاً حتى سقط سهم قوسهِ الى الارض فاعطى في الحال القوس الى احد الاتباع وقد عبث بهِ الذهول فلبث برهة لا ينبس بحوجاء ولا لوجاء ويده تعقد شريطة على مقدم صدره وتحلها مدة تلك الغيبوبة حتى استفاق واخذ يسير الهوينا راجعاً الى المدينة فتعقبهُ رجالهُ وكأنَّ على رؤوسهم الطير منذهلين وقائلين في نفوسهم ماذا عسى ان تكون تلك الاخبار التي بعثتهُ على هذا الذهول وحملتهُ على تأثير شديد كهذا . اما وليم فسار حتى دخل قلعته وطفق يخطر في عرصتها ذهاباً واياباً ردحاً من الزمان مدفوعاً بعنف هياج عظيم للتامل والافتكار ورجالهُ واقفون صامتين لا يجسرون ان يكلموهُ حتى شاعت بين ظهرانيهم انباء ذهولهِ واخذوا يضربون في استطلاعها اخماساً لاسداس حتى جاء القلعة احد كبراء

القواد المقدمين عند وليم وكان يدعى فتزسبورن وفي دخولهِ اعترضهُ على الابواب وفي المداخل الذين كانوا جالسين هناك واستكشفوهُ حقيقة الامر علمًا منهم بانهُ خبيرٌ بما توقع نظرًا لما لهُ عند وليم من المكانة في الثقة والاعتبار فاجابهم « لا اعلم شيئًا بعد لكنني ساعلم عن قريب » ولما دنا من وليم خاطبهُ « لماذا تخفي عنا الاخبار فقد شاع في المدينة ان ملك انكلترا توفي وهارلود حنث باقسامهِ لك واغتصب الملك لنفسهِ اليس ذلك صحيحًا »

وعندها قص عليهِ وليم الخبر واوقفهُ على بواعث غيظهِ وكدره فاشار عليهِ فتزسبورن بان يملك روحه ولا يدع هذه الحوادث تروع عزمهُ وتصغر نفسهُ وزاد عليهِ قولهُ « اما من جهة موت ادورد فتلك حادثة مضت وليس في الاستطاعة ردٌّ فائت كهذا واما من خصوص اغتصاب هارلود وخيانتهِ فذلك داءٌ سهلٌ علاجهُ فحق الملك نما هو لك وعندك العساكر التي تقدرك على تحصيلهِ . فاقدم عليهِ ثابت الجنان . وننصرك كشفول باذن الله وعليهِ التكلان »

فاخذ وليم يجيل هذا الامر في دائرة فكره ويقلب فيهِ نظر التدبر والاستبصار ريثما حدة الغيظ قد انكسرت وعادت افكاره الى مضاجع الراحة والسكون فارتأى ان يعقد مجلسًا من العظماء والكبراء ويطرح لديهم هذه المسألة ليس بقصد استشارتهم والعمل بمقتضى ارائهم بل لكي يستميلهم الى التصديق على الخطة التي عزم على انتهاجها ويدعوهم الى العمل معًا بجدٍ وصدق وكان من نتيجة ذلك المؤتمر المرؤوس بوليم ذاتهِ ان ينفذ رسول الى هارلود بتنجزه العهود . ويتقاضاه الوعود . وبموجبهِ سار الرسول حتى جاء لندن واطلع هارلود على الامور التي استقدم ليخابره بها وكانت كما يذكر القارئ ثلثةً — ان يرسل هارلود ابنتهُ الى نورمندي لتزف الى احد قواد وليم وان يتزوج هو ذاتهُ ابنة وليم وان يمهد لوليم طريق الجلوس على العرش الانكليزي — ثم ذكره بالطريقة الرهيبة التي ارتبط بها ما وعد بهِ — بالاقسام التي حلف بها امام اقدس ذخائر الكنيسة واعظم حفلة مشهورة

فاجاب هارلود

اولاً . من جهة ارسال ابنتهِ لكي تزف الى احد قواد وليم فذلك لم يستطعهُ بداعي وفاة ابنتهِ ولا يظنُّ ان وليم يرغب في ارسال جثتها اليهِ

ثانيًا . من خصوص تزوجه بابنة وليم التي خطبها في نورمندي فقد ساءهُ ان هذا ايضًا كان فوق طوره من وجه انهُ لم يقدر على الاقتران زوجة غريبة بدون رضى شعبهِ وفضلاً عن ذلك قد تزوج اميرة سكسونية من مملكتهِ

ثالثًا . من جهة العرش الانكليزي فلم يكن متوقفًا عليهِ امر تعيين خلف لادورد بل على مشيئة ادورد ذاتهِ وشعب انكلترا فامراء الانكليز واشرافهم اجمعوا هم وادورد على انهُ «هارلود» هو ملكهم الشرعي افيرفس مناخس ويقاوم مد الاجماع العام . وفوق كل ذلك كان يود ان ينفذ رغائب وليم ويقوم بانجاز مواعيدهِ لهُ لو امكنهُ ذلك ولكنهُ قد وعدهُ بشيء ليس لهُ ولا يقدر ان يعطيهُ اياه

رابعًا . من خصوص اقسامهِ فمع انهُ اجراها امام الذخائر المقدسة الموضوعة تحت الغطاء الذهبي يعتبر انها عديمة التأثير من وجه انهُ كان مضطرًا اليها اضطرارًا ومتخذًا اتمامها وسيلة للهرب من نورمندي والمواعيد والاقسام التي تدعو اليها الضرورة تعد فارغة باطلة

فرجع الرسول بهذه الاجوبة الى نورمندي وشرع وليم يتأهب للحرب واول خطوةٍ قدرها لاجلهِ في هذا السبيل كانت دعوتهُ لاخلص اصدقائهِ واستشارتهم في هذا الامر وبعد المداولة والمباحثة اخلصوه الراي في الحمل على انكلترا واعدين بعضده وشد ازره وبذل غاية جهدهم في تحقيق فوزه ونصره

وفي الخطوة الثانية عقد مجلس شورى من جميع كبراء الدول واشرافها ومشاهيرها ونواب المقاطعات ومشايخ المدن للبحث فيما اذا كانت البلاد تقوى على تحمل زيادة الضرائب تحصيلاً للاموال المحتاج اليها في هذه الحملة . فان وليم وان كان لحاكم مطلق لهُ حق التعويل على مهاجمة انكلترا ولهُ استطاعة على حشد الرجال بداعي ارتباط كل امير مقاطعة تحت يده بوجوب تلبيتهِ بالمال والرجال ففي حملة عظيمة كهذه كانت الاحتياجات اكثر جدًّا من المعتاد في تلك الايام ولم تكن القوانين الدولية في الاجيال المتوسطة تساعد على سد نفقات كهذه بوجه مقبول متساوٍ فلم يكن للحكومات حينئذٍ قوة على ضرب المكوس كما في هذه الايام حتى انهُ الى الان تجمع الضرائب في فرنسا وانكلترا على سبيل احسان من الشعب الى الحكومة ولم يكون في ايام وليم وزير للمالية ليشيّ قرضًا ويرتب لهُ ضمانات فغاية ما كان في ذلك العهد من هذا القبيل استناد الحاكم في نفقاتهِ على مداخيل بلاده وواردتها الطفيفة اما وليم فرأى انهُ في هذه الحملة يعوزه بناء السفن وتجهيز الاسلحة والذخائر والمؤن وكل ذلك يتطلب اموالاً جزيلة فمن ابن يحصل على تلك الاموال . فاشكل على اولئك المدعوين البحث في هذا الامر ومتعلقاته وانتهوا الى الاختلاف والشقاق في الاراء . فاهل الراحة والسكينة والصناع والتجار الذين كانوا لا يهتمون

بسوى الاستمرار على مباشرة اعمالهم بالامن والسلام رفضوا هذا المشروع رفضاً مطلقاً وحسبوا ضرباً من الخرق والحماقة ان يكونوا مطالبين بالاسعاف مما تكسبهُ ايديهم اخذاً بناصر حاكمهم وتقويتهُ على الخروج بحملة محفوفة بالمخاطر مجهولة العواقب لا تجديهم على فرض تحقق نجاحها ادنى نفع وقد وافقهم على هذا الرفض كثيرون من الامراء الذين رجحوا نهايتها بالفشل والخيبة وانكروا كون ارتباطهم بتلبية حاكمهم بالرجال يفرض عليهم اطاعتهُ الى حد مظافرتهِ خارج البلاد وعبرا البحر ذهاباً وراء مطالبهِ في عرش مملكة اخرى

اما الباقون فكانوا بالعكس مستحسنين هذا المشروع كل الاستحسان ومصوبين الخروج على انكلترا فكانوا اثبت قلوباً واوفر حمية واقداماً او لربما كانت مراكزهم واحوالهم الراهنة تخولهم الانتفاع من نجاح هذه الحملة أكثر من اولئك وتصغر في عيونهم الخوف من خطر سقوطها وهكذا انقسمت الاراء وتضاربت الافكار واذ ان القوانين الموضوعة في هذه الايام لرفع التشويش وحفظ النظام حين مجاذبة اطراف الجدال في مجلس الامة لم تكن بعد قد وضعت في ذلك العهد كنت ترى مجلس اولئك النورمنديين غاصاً بالجلبة واللغاط وحافلاً بالضوضاء والعياط. والاعضاء يروحون في عرضهِ ويجيئون . ويقومون في طوله ويقعدون . وهم جماهير متفرقة واحزاب مختلفة لكل حزب منهم زعيم قائم فيهم على اجتهاد في حشد السامعين حولهُ ليخطب عليهم واهداً قوم في ذلك المحفل كانوا اطفر من الجنادب جائلين من عند خطيب الى آخر منساقين بقوة حدة الخطباء وفصاحتهم ومجذوبين بمغناطيس استحسانهم للاراء التي يسمعون اولئك الخطباء يجاهرن فيها وبالجملة كان منظر ذلك المجلس اشبه شي بالمجالس التي كانت تعقد في اميركا ايام الثورات وقبل تقييدها بنظامات ورؤساء

اما فتزسبرن صديق وليم الامين ومستشاره الخاص الذي مر الكلام على انهُ كان الرجل الوحيد الذي اقدم على مكاشفة وليم خبر موت ادورد وتملك هارلود فاذا رأى ان استصواب هذه الحملة وتحضنها ليسا من متعلقات ذلك الاجتماع اسرع الى وليم واشار عليهِ بنفض المجلس وترتيب ما يراه بعد ذلك موافقاً على انفراد وتعهد لهُ بتجهيز اربعين سفينة برجالها واسلحتها وذخائرها وعرض عليهِ ان يدعو كلاً من اولئك الاعضاء والنواب ويسألهُ على انفراد ماذا يروم هو ان يفعل

فاستصوب وليم رأيهُ هذا وعمل بموجبهِ وصادف نجاحاً غريباً فان الذين دعوا اولاً وعدوا بمساعدات وتقادم عظيمة وفي الحال صار تسجيل وعودهم والاشهاد عليها وكل من

جاء بعدهم كان يغار من سبقه وتهزه الاريحية لاظهار كثير من الغيرة والكرم وفي كل ذلك كان وليم يقتبل هذه التبرعات بمزيد المنونية وجزيل الشكر مبالغاً في معاملة اولئك المتبرعين بما لا يوصف من المؤانسة والملاطفة وله في هذه المجاملات ضروب تحيل واساليب دهاء تحدّاها تذرُّعًا لموالاة كبراء بلاده واستمالة عظماءها تذليلاً لرقاب المصاعب في طريق فوزه ونجاحه

وبكلمة نقول ان جزر تلك المصاعب التي تهددت الحمل على انكلترا اعقبهُ مدُّ تسهيلات . فاض بالاسعافات وتدفق بالمساعدات فان الامراء والاشراف تبرعوا بالوعد بالرجال والمال والمراكب والاسلحة والذخائر وبالاختصار بكل شيء احتيج اليهِ وعند الفراغ من تقييد ما تبرع بهِ امير كل مقاطعة وجد وليم بمزيد الاندهاش ان كل لوازمهُ صارت مقضية . فبقي عليهِ خطوة ثالثة مهمة في هذا المشروع الا وهي استحصال رخصة البابا لانهُ توقع من استمالة حبر رومية الاعظم اليهِ في هذا الامر نفعًا عظيماً لا يقدّر وبناء عليهِ سير من قبلهِ الى رومية لنفرنك — ذات الرسول الذي نجح منذ سنين في تثبيت شرعية زواج وليم ومتيلدا لدى البابا — وامره ان يطرح المسئلة امام كرسي قداستهِ ويتوسل اليهِ ان يصرح بعدالة تسمية وليم ملك انكلترا ويعلن لهُ اجازة الاستيلاء على عرشها بقوة السلاح

وقد نجح لنفرنك هذه المرة ايضاً فان البابا بعد ما فحص دعوى وليم حكم بحقانيتها وصرّح بتسمية وليم ملك انكلترا وامر باصدار اجازة « منشور » لهُ في ذلك وعليهِ صدرت الاجازة غاية في الاتقان معلمة بالصليب على جاري العادة البابوية ومختومة بختم مستدير من رصاص

ولم يكن بالامر الغريب ان البابا نظر بعين الاستحسان الى دعوى وليم واظهر اشد الارتياح الى نجاحها اذ لم يكن ريب في ان تربع وليم على سرير الملك الانكليزي كان افيد للكنيسة من تربع هارلود من وجه ان وليم باستيلائهِ على انكلترا يمكن فيها سلطة كنيسة رومية ويجعل قدم نفوذها راسخة في سائر اطرافها لانهُ كان في غاية الخضوع للسدة البابوية كما وضح من تصرفهِ في مشكل زيجتهِ وكان هو وامرأتهُ متيلدا يميلان كل الميل الى نجاح وتقدم الاديرة والكنائس والصوامع وسائر الامور الدينية ناهيك عن ان تصرفهُ هذه المرة في ارسالهِ لنفرنك لكي يبسط دعواه لدى كرسيها بينما هارلود لم يفعل اقل شيء من مثل ذلك كان يدل دلالةً بينة على شدة احترامهِ لسيادة الكنيسة ويرجح لتوليها (البابا) انهُ اي وليم سيكون في مدة جلوسهِ على العرش اذا توفق اليهِ ابنًا صادقًا لها ويبرهن

طاعته وخضوعه لاوامرها المقدسة با لسعي في رفع شأنها وتعزيز كلمتها بخلاف مناظره هارلود

وعلى ذلك ما لبث البابا وكرادلتهِ ان حنوا دعوا وليم واقاموا مطاليبهِ فارسل لهُ الحبر الاعظم فوق اجازة الاستيلاء على انكلترا رايةً وخاتمًا اما الراية فكانت مصنوعة بكل اتقان واحكام على ان قيمتها لم تنحصر في زخرفتها وكلفتها بل با لبركة الفائقة التي تضمنتها من قبل قداسة مرسلها واما الخاتم فكان من ذهب وفيهِ الماسة عظيمة الثمن على ان كلا الذهب والماس الذين فيهِ كانا فقط عبارة عن وسيلة لحفظ وآكرام شيء اثمن منهما واكرم وهذا الكنز المذخور كان شعرة من راس بطرس الرسول ــ ذخيرة مقدسة ذات اعتبار عجيب . وثمن لا يقدر غريب

ولما جيء بالاجازة « المنشور » والراية والخاتم الى نور مندي كان لها وقع عظيم عمومي لان التصديق على هذه الحملة بقوة كهذه سامية من راس الكنيسة الذي اكثر الناس ينظرون اليهِ بملء التجلة والاحترام كان كختم على حق الشروع فيها وتوقع الظفر والانتصار . وعندها لم تبقَ من صعوبة في اعداد الرجال وذخر المال والتاهب للحرب والقتال . وقد اصبح كل لهفان متعطشًا لمقاسمة المجد وكسب احسن الجزاء

ولما رأى وليم ان الامور مطردة مجرى النجاح والتحسين انفذ بلاغًا الى الزعماء والمقدمين في المقاطعات حوالي نورمندي بهِ يدعو الامراء والعساكر وجميع اصحاب الاقدام من كل درجة الى الاتحاد معهُ والانضمام اليهِ وهذا احدث تيقظًا وانتباهًا عموميين تتسابق الى خدمتهِ كثيرون من اهل الجراءة والبسالة وانهالت عليهِ موارد الرجال والخيول والاسعافات انهيال الامطار واصبح حديث مهاجمة انكلترا والاشتراك في الحملة عليها ملء افواه الجميع . وشغلاً شاغلاً عند الرفيع والوضيع وسالت الطرق والشوارع بالامراء والجنود بعضهم فرسان منفردون وبعضهم جماعات كبيرة او صغيرة قادمون الى نور مندي لعرض الخدمة والتطوع لاجل هذه المهمة كل ذلك وليم يقبل الجميع بمزيد الترحاب والتاهيل . ويعد الكل [illegible] الحسنى والخير الجزيل . متى دخل انكلترا . واصاب في محاربته هارلود غلبةً ونصرًا . فكان يعد هذا بالدراهم . وذاك بالغنائم . وذلك بوظيفة لا يكون لهُ فيها مزاحم . حتى نفس الكهنة وخدام الكنيسة . فقد وعد كلاً منهم بمكافاةٍ كريمة وجائزة نفيسة . وهولاء لم يقصروا في مقاسمة العوام . المساعدة والاهتمام . فان واحدًا منهم اعدّ سفينة وسلحها بعشرين رجلاً على شرط انهُ يُسام مطرانًا على ابرشية غنية في انكلترا حينما يستوي وليم على عرشها

و بينما كانت هذه الاستعدادات جارية على قدم وساق داخل البلاد كانت المدن البحرية وسائر المدن على الشواطئ والتخوم النورمندية مظهرًا لتاهبات بحرية حربية فكنت تري معامل السفن مشغولة ببناء المراكب والزوارق بعضها لنقل الرجال والبعض لحمل الذخائر والمون و بعضها قوارب صغيرة لاجل قطع الانهر واخراج العساكر الى البر على الشواطئ الضحلة (حيث الماء قليل) وكذا الحدادون وصانعوا الاسلحة كانوا منهمكين على الدوام في طبع البيض الحداد . ومد السمر المداد . وتهيئة سائر العدد الحربية كالخوذ والدروع بينما كان عدد عديد من الرجال ينقلون على حيوانات النقل تلك المعدات من المعامل الى السفن وحالما فرغ وليم من هذه الاجراءات رأى انه باقٍ امامه خطوة رابعة قبل الاقلاع الى انكلترا وهي استشارة ملك فرنسا وطلب مساعدته وكان اسمه حينئذٍ فيليب فذهب اليه بنفسه فوجده في قصره سنت جرمنس وهناك بعد تادية فروض الخضوع والاحترام اطلعه على مقاصده وطلب منه الاستحسان والامداد واعدًا اياه بان يملك انكلترا كما ملك نورمندي تحت سيادة حكومة فرنسا

فلم يصوب فيليب هذا المشروع وسأل وليم على من يترك ادارة دوكيته مدة غيابه للسعي وراء مملكة اخرى و بعد الافتكار اجابه انه مرزوق بحسن الحظ زوجةً حكيمةً وشعبًا امينًا فيمكنه تسليم امر الادارة اليهم الى حين رجوعه

فظلّ فيليب مصرًا على عدم استحسانه هذا العزم من وجه انه مخيف ومخطر ونصح لوليم بالعدول عنه والاقتناع بحالته الحاضرة وفي النهاية عقد مجلس شورى والقى مسئلة وليم للبحث وكان من خلاصة المداولة تخطئة وليم و رفض المساعدة له . اما وليم فودع فيليب وخرج بعد ما قال له «كان في عزمي ان احكم على انكلترا معترفًا بسيادتك لو نلت منك عونًا واسعافًا واما الان فقد عدلت لانك ابيت تلبيتي لاني انما اشعر بالمكافاة لاولئك الذين يساعدونني»

وعاد وليم الى نورمندي حيث وجد ان الاستعدادات قد اخذ فيها مدة غيابه بوافر الغيرة والنشاط ومن ثم شرع في تدبير الامر الاخير الذي كان عليه ان يتناول الاهتمام به قبل خروجه على انكلترا وهو تعيين امر الحكم في غيابه فعوّل على وضع زمام القوة العالية في يدي زوجته وعين في الوقت ذاته نخبة من مأموري الملكية والعسكرية على شكل مجلس نواب يساعدونها في تنفيذ الاحكام والمشورات والافادات ويدبرون تحت عنايتها مهام الحكومة وهكذا دعيت الى وظيفتها بلقب «نائبة دوك» بباهر التجلة والاحتفاء في مشهد

حافل بكبراء البلاد وفي ختام الحفلة قال لها وليم بعد ما فوضها بالحكم والادارة « ولا تحرمينا من الانتفاع بصلواتك وصلوات كل سيدات محكمتك لكي ترافقنا بركة الله وتنجح مساعينا » وارى انه لم نعد لدينا ضرورة كما في الماضي تدعونا الى اتهام وليم بالرياء والادعاء في اعترافهِ بالاتكال على العون الالهي في الاحوال الشخصية والسياسية التي كان عازماً على مباشرتها ويرجح انهُ كان يعتقد باخلاص ان ميراث التاج الانكليزي كان من جملة حقوقهِ ومن الواجب عليهِ بذل القوة لاجل تحصيلهِ ولذا أقدم على تتميم الاستعدادات بما لا مزيد عليهِ من العزم والهمة حتى غادر البلاد كلها قائمة قاعدة بالتأهبات وبينما كان الاهلون على مزيد الثقة بان هذا المشروع قد صدق عليهِ بامر سماوي اذا بهِ قد تثبت بظهور غريب وتجلٍّ عجيب حدث قبيل الاقلاع من الشواطيء النورمندي وذلك بان ظهر نجمٌ مذنَّبٌ (١) كبيرٌ معترض في عنان الجولة حسب تقرير الراصدين ذنبان فاتخذه الناس دليلاً ينبئ باتحاد نورمندي وانكلترا مملكةً مزدوجة تظهر للعالم بغاية المجد والبهاء

(١) كان القدماء يتشاءمون من هذه المذنبات ويحسبون ظهورها غضباً من الالهة وكان اول من حسب فلك نجم مذنب على موجب قواعد تعليمية العلامة المحقق نيوتن الى ان قام غيره كهالي وانكي وغيرهما اما نور هذه المذنبات فمستمد من نور الشمس بدليل انهُ يطول عند اقترابهِ منها ويتلاشى عند ابتعاده والارجح ان النجم الذي ظهر على ايام نيوتن هو نفس النجم الذي ظهر بعده على ايام هالي وذلك يتضح من تساوي المدة بينهما وهي مقدار خمس وسبعين سنةً كما يظهر من هذا الجدول

وقت الظهور	
سنة	١٤٥٦
«	١٥٣١
«	١٦٠٧
«	١٦٨٢

ولعل النجم الذي ظهر عندنا منذ بضع سنين هو ذلك النجم عينهِ والله اعلم

ومما يستحق الذكر النجم المدعو عندهم بذي المقدار الهائل كان ظهوره سنة ١٣٠٥ للمسيح وفي سنة ١٤٥٦ امتد ذنبهِ من الافق الى سمت الراس وكان هائلاً جدًّا الى حد ان البابا الحالي امر بتقديم صلوات خصوصية في جميع الكنائس لعل الله ينجي العالم من عواقبهِ ولا يزال بعض السذج في عصرنا هذا يتطيرون من ظهوره ولله في خلقهِ ايات

الفصل التاسع

اجتياز البوغاز

واخيرًا اجتمعت العمارة التي أُعدت لاجتياز البوغاز بمهمات الحملة عند مصب نهر صغير يدعى ريف وذلك في اواخر شهر ايلول سنة ١٠٦٦ وتاريخ هذه الحادثة — غلبة النورمان — يذكره جيدًا طلبة علم التاريخ اذ هو من جملة حوادث التاريخ الشهيرة وكان لتألب العمارة في مصب ذلك النهر وحشد الجيوش على عرض شاطئه مظهر عظيم شديد التأثير فالعمارة البحرية المؤلفة من السفن والبوارج والقوارب والزوارق المغشية وجه المياه — وصفوف الخيام الطويلة المضروبة تحت الكهوف على الشاطئ — وفرق الفرسان الغارقة بالفولاذ — وجموع العساكر المنهمكين بنقل الذخائر والمؤن والآخذين بالاستعدادات الاخيرة ذهابًا وإيابًا تأهبًا للاقلاع — وجماهير الالوف من المتفرجين الذين كانوا دائمًا يروحون ويجيئون والدوك نفسه المستوي بعدة الكفاح على جواد الجلاد . محاطًا بالخفراء والضباط والقواد . — كل هذه وغيرها من المظاهر الباهية العظيمة التي يكثر تجليها في مثل هذه الظروف كانت باعثة للنظر على الانبهار بانوار ذلك المشهد الحافل بالبهجة والبهاء والافتخار . ومعلوم ان جمع هذه القوات العظيمة من الرجال والمراكب واكمال ما يتبعها من الاستعدادات المتنوعة تهيئًا للاقلاع كان قد استغرق وقتًا ليس بقصير حتى اذا تم كل شيء ومكان ذلك في اواخر ايلول كما مر الكلام حان وقت نوء الاعتدال واصبح الاقلاع متعذرًا لانهُ ما عتم ان توالى عصف الارياح وهياج الانواء مصحوبة بالتغيرات الجوية مدة اسابيع عديدة وقد تخلل هذه الانواء فترات من الصحو انقشعت فيها الغيوم وظهرت اشعة الشمس على انها لم تكن كافية لان تحل العمارة من قيود الانحصار وتطلق لها سراح الاقلاع بداعي قصر مدتها وعدم تمكن البحر فيها من الرجوع الى حالة الهدوء والسكون لان تياراته المتعالية كانت تظل على عجيجها وهياجها متلاطمة متدافعة على الشاطئ ومتساقطة على كثبان الرمل في مصب النهر محطمة السفن الواقفة في طريقها والمعرضة لانكسارها وكانت فترة الصحو لا تلبث ان تنقطع بهبوب الارياح وتعاظم الانواء وانشاء السحب في عنان السماء . واذ ذاك تُوقف السفن على مراسيها وتُلف شرعها وتطوى اعلامها وتُدار من نحو المقدم الى جهة العاصفة بوجه العبوسة والغضب وينكفئ الناس على الشاطئ الى

الهمام والمتفرجون يرجعون الى بيوتهم ريثما وليم وضباطه يبقون يراقبون مرور السريع بمزيد القلق وعظيم الاضطراب . وبالواقع كان لوليم اسباب جوهرية تبعثه على ايجاس الخوف من عاقبة هذا النوء الطويل المستديم في طريق مشروعه لان الابطاء في الاقلاع كان بحد ذاته موجبًا للحذر وانشغال البال من حيث ان فصل الشتاء كان على الابواب لانه كان بعد مرور شهر واحد يصبح اجتياز البوغاز بتلك العمارة امرًا بعيدًا جدًا. هذا فضلاً عن ان الرجال الذين يقلعون بحملات مخيفة مظلمة كالتي عزم عليها وليم كانت نفوسهم وقواهم عرضة للاشتداد والانسحاق خاضعة لعوامل التغيرات العظيمة الفجائية ومفعولة بقوة اقل الطوارئ الطفيفة الصغيرة ولا شيء افعل في نفوسهم في مثل تلك الظروف من ظواهر الجو وقد ادرك وليم ان آثار حمية رجاله وغيرتهم كانت آخذة في الاختفاء وتحت اطباق السحب المتكاثفة . ومسرعة في الانمحاء في مجاري السيول الجارفة. وكانت شعائر القنوط والخمول التي نبهها فيهم ذلك العاصف تزداد فيهم تعمقًا وانتشارًا بقوة الحس المشترك فكنت تراهم لا يشغلهم شاغل سوى توقع المخاطر والاهوال والتسلي اثناء مراقبة سير الغيوم وتلاطم الامواج بانتظار الرزايا والمعارك ونتائج الاندحار وغير ذلك من الامور المخيفة المظلمة التي تذهب ببسالة الجندي وتحدوه على اليأس والجزع

ولم تكن تصورات المصائب والشدائد محصورة فيما ذكر فقط لانه مع ان معظم العمارة كان باقيًا على مصب النهر وفي أمن من العواصف والانواء فكثير من المراكب كان خارجًا عنه معرضًا لها فمن قطع جيء بها مؤخرًا الى ذلك المرسى او طرادات أرسلت الى بعض الثغور المجاورة لقضاء بعض الحاجات المتعلقة بالاستعدادات او سفن كان لنواخذتها « جمع ناخذاة بمعنى قبطان » شجاعة ممتازة حملتهم على التعرض للمخاطر بدون داعٍ فاكثر هذه المذكورات حطمتها الامواج وقطعت اوصالها التيارات وقذفت ببقاياها مع جثث نوتيتها الغرقى الى الشاطئ وقد هالت الناظرين رؤية تلك الجثث المنتفخة المهشمة والمطمور نصفها في الرمل كأن البحر حاول ان يخفي عن العيون منظر تلك الجرائم التي ارتكبها . فاصدر وليم الاوامر المشددة للاسراع في جمع تلك الجثث ودفنها سرًا بحال وجودها على انه رغماً عن هذه التحوطات لم تلبث انباء هذه الارزاء ان انتشرت في سائر اطراف المعسكر مكبّرة مجسّمة وكان الخوف والرعب يزدادان كل يوم استيلاء على الافكار وينذران بتوقع المكاره وانتظار الاخطار . فعول وليم على الاقلاع عند اول فرصة ممكنة وذلك لم يكن طويلاً فان الطقس تغير وفي الحال هبت ريح جنوب لطيفة عارضت انقلاب

الامواج على الشواطئ الافرنسية وعليه اصدرت الاوامر في الاقلاع فهدمت الخيام ونقلت الذخائر الى السفن وحُشدت العساكر في القوارب الى المراكب وازدحمت اقدام المتفرجين على الشاطئ افواجًا افواجًا ونُشرت القُلع واخذت الميناء تسيل بحركات تلك القطع متأهبة للاجتياز ومستعدة للعبر في عباب ذلك البوغاز . على ان البحر ما كان الا كالافاعي ومعلوم القول

« ان الافاعي وان لانت ملامسها عند التقلب في انيابها العطب »

فان ذلك التغير المستحب ما كان الا مجرد خدعة واحتيال وفخ أخفي للوقوع في اشراك الرزايا والاهوال . لانه ما ابطأ ان عادت الرياح الى عصفها الشديد . ولم تحب الى تلبيتها ما عليه مزيد . وبعد ان قطعت العمارة مسافة مئة ميل تحت جهد الخطر والعناء اضطرت على الرجوع الى مرفاء سنت فالري طلبًا للوقاية والالتجاء فساء ذلك وليم ولكنه اتخذ هذا التأخر وسيلة للتزود ببعض القوات الاخيرة ومواصلة العاصمة ومتلدا . وهذه الموانع المخيفة والمنذرة بالشر كانت لا تخلو من فائدة عظيمة لم يدركها وليم حينئذٍ من وجه انها قادت هارلود في انكلترا للظن في رجوع وليم عن عزم الحمل عليه وهكذا عدل عن التحرز والتيقظ ولم يكن « كما سبق القول » في تلك الايام وسائل قياسية لتبادل الاخبار بحيث يسهل شيوع الانباء عن الحوادث الخطيرة والاجراءات المهمة كما في ايامنا هذه وعليه كانت كل حكومةٍ تعتمد على الجواسيس في الوقوف على حركات الاعداء وكان قد شاع في انكلترا في شهر آب خبر عزم وليم على الحملة فاستعد هارلود لملاقاته وصده لكنه اذ رأه ابطأ في الحضور ومضى شهر ايلول اسبوعًا بعد اسبوع ولم تبن ادنى علامةٍ للعدو ولا ظهرت له اسباب هذا التأخر استنتج اغفال ذلك العزم او ارجاءه الى الربيع واذ كان الشتاء قريبًا رأى من الموافق ان يستعد في ارسال عساكره الى مشاتيها فصرف عنه بعضها والبعض الآخر وزعه في كثير من القلاع والمدن الحصينة حيث يصرفون فصل الشتاء ويكفون مشقات الامطار والزمهرير وفي الوقت نفسه يكونون على اهبة الاندفاع عند حدوث اقل سبب مفاجيء على انه ما لبث ان دعاهم لدفاع كما سيأتي معنا

ومع ان هذه التنظيمات التي اجراها هارلود كانت في نظره اضمن لسلامة رجاله وراحتهم لم يكف في اثناءها عن التجسس والمراقبة والاستطلاع ساعيًا جهده في الاستعلام عن عدوه وتنسم اخبار حركاته فاقام الارصاد ونشر العيون على تخوم الجنوبي وشدد الاوامر في تدقيق الملاحظة وضبط السهر على كل شيء يجد لديهم او يبدو لهم الاسراع في ابلاغه .

ومعلوم ان وليم كان يبذل كلما في وسعه لاجل قطع موارد الاخبار وقد ساعدته التقادير على ذلك فان تلك الانواء التي حدثت جعلت السفر في البوغاز متعذرًا على سفن التجارة وقوارب الصيد ولذلك لم يستفد الرقباء على تخم انكلترا الجنوبي من استطلاع الحوادث الا النزر القليل

اخيرًا فرغت جعبة الصبر عند هارلود وتعذر عليه البقاء على تلك الحالة المبهمة فعقد النية على ارسال نفر من رجاله الى نورمندي توصلاً لاستجلاء الحقائق ودفع الشبهات وليس بخافٍ ان المرسلين بطريقة سرية او الى بلاد العدو الى معسكره يعتبرون بحكم القوانين الحربية جواسيس ويعاقبون اذا قبض عليهم بالموت ولذلك كانت ارسالية كهذه غاية في الهول والخطر واذا كان الموت المحكوم به على من يوجد بهذه الصفة مهينًا للغاية اذ الجواسيس كانوا يشنقون بلا شفقة علنًا ولا يقتلون باطلاق الرصاص — فاكثر الناس يأبون التعرض لهذا الخطر المخيف ومع ذلك كله فصفات البأس كانت لكثيرين من رجال الحرب الذين يقدمون على الاهوال ويركبون المخاطر موعودين بالمكافأة الحسنى والجزاء النادر فبذا لجواسيس هارلود ان يقطعوا البوغاز مجتازين الى راس بعيد في شرقي نورمندي حيث المدخل ضيق فاتوا الشاطئ وساروا في البر متخفين بزي الفلاحين حتى جاءوا سنت فالري حيث كانت عمارة وليم وهناك جلسوا متنقدين مستطلعين مستكشفين بكل ضبط واحتيال لكنه رغماً عن ملء التحفظ والتحرز عرفت دخيلة امرهم . وهتك حجاب سرّهم . وظهر انهم جواسيس فأُلقي عليهم القبض وسيقوا الى وليم لينالوا عقابهم . اما وليم فعوضًا عن الحكم عليهم بالموت الذي توقعوا انه سيكون نصيبهم المحتوم وجزاءهم الذي لا مفرّ منه عفا عنهم وامر باطلاقهم قائلاً لهم « ارجعوا الى الملك هارلود واخبروه انه كان في غنىً عن تحمل النفقات في ارسال الجواسيس الى نورمندي ليقف على الاستعداد الذي اقوم به للخروج عليه اذ انه لا يلبث ان يبلغه بوسائط اخرى — اسرع ما يمكنه ان يتصور — فاذهبوا وقولوا له عني ان يجعل ذاته اذا شاء في أمن مكانٍ يستطيع ان يجده في كل بلاده وان لم يجد عليه قبل نهاية هذه السنة فلا تعود له حاجة للخوف مني ما دام حيا»

ولم تكن هذه الثقة التي عبّر عنها وليم في نجاحه مجرد ادعاء ومحض افتخار باطل لانه علم قواته وقوات هارلود ولم تكن حملته هذه مدفوعة بقوة الرعونة والطياشة بل محمولة على مزيد التروي والتأمل وقد تراءت بمظهر الخوف والشك لعيون الذين قاسوها على ظواهر الحال فحمقوا مشورة دوقٍ كوليم يحكم على مقاطعة صغيرة كنورمندي ويثير حربًا

هائلة على ملك انكلترة القابض على زمام اعظم واقوى مملكةٍ في العالم اما وليم فبالعكس كان يعتقد وجوب القيام بذلك تحصيلاً لحقهِ الارثي من يد مغتصبهِ وقد تحقق لديهِ نوال الميل والانضمام حتى من شعب انكلترة حالما يتمكن من ان يريهم استطاعتهُ على حفظ حقوقهِ وانهُ قادر على ايضاح ذلك لهم ببرهان ناصع البيان ودليل حسي منظور اعني بهِ تلك الدارة الكبيرة الغاصة بها الميناء وتلك الخيام الكثيرة المملوءة العساكر المغشى بها وجه الشاطئ

واتفق ان بعض قوادهِ اوضحوا امامهُ رعبهم من قوات هارلود وايجاسهم خوف عدم استطاعتهم الثبات ضدها فاجابهم انهُ بقدر ما تكون قوات هارلود مخيفة ينبغي ان يعظم فرحهم وسرورهم بالمجد العظيم الذي ينالونهُ بالغلبة عليهِ ثم زاد عليهِ قولهُ « لا بأس من تأتي في قلوبكم على سبيل التسلية افكار قوتهِ واقتداره حالة كوني اتعجب كل العجب من عدم افتكاركم بعظم قوانا نحن فلست في حاجة الى اقل اهتمام لئلا يدرك هارلود على بعدهِ عنا بواسطة جواسيسهِ شيئاً عن القوة التي اسير بها اليهِ حينما انتم القريبون مني يظهر انكم لا تعرفون عنها الا شيئاً يسيرًا فلا تهتموا على الاطلاق فاتكلوا على عدالة دعواكم وثقوا بما اتوقعهُ انا وكونوا رجالاً فتجدوا ان النتيجة التي اشعر بتحققها وترجونها انتم سننال بكل تأكيد واثبات »

واخيرًا انقضت العواصف وسكنت الانواء وتأهبت العمارة للمبارحة الاخيرة وفي معظم هذه الحركة النهائية حدث في احد الاصباح ما استدعى انتباه جميع الذين كانوا في المراكب وعلى الشاطئ وذلك بان رأوا سفينةً جميلةً قادمة على الميناء . عرفت انها قطعة كبيرة متقنة كانت الدوقة متيلدا قد بنتها على نفقتها وجيءَ بها تقدمةً منها وداعيةً لزوجها وكانت هي ذاتها راكبة فيها مع قوادها وحرسها لاجل مشاهدة سفر وليم ووداعهِ وقد كان ولا ريب لحضورها في حالة كهذه وقع عظيم بعث الجميع على الحمية والنشاط فتصاعدت من السفن في الميناء ومن جماهير الوقوف على الشاطئ ضجات الفرح والاستحسان احتفاء بقدومها البهج . وبالواقع كانت سفينة متيلدا مبنية بمزيد الدقة ومنتهى الزخرفة والزينة فالشرُع كانت مدبجة بالوان مختلفة اكسبتها منظرًا بهيًا وقد رسم عليها في اماكن متعددة صورة الثلاثة اسود التي كانت تمثل شارة النورمند وعلى جانبيها من لدن المقدَّم رسم صورة رأس تمثل ابن وليم ومتيلدا الثاني يرمي النبال لان وليم كان يسرُّ على الخصوص برؤيتهِ ابنهُ يفعل ذلك وكان السهم مصوبًا في الرسم الى المقدم مشيرًا الى شدة وقوة الساعدين على رميهِ ومخيلاً للناظر انهُ على أهبة النشب وكان اسم تلك السفينة مورا فجعلها وليم في مقدم العمارة ورفع عليها تلك الراية البديعة الاتقان التي ارسلت اليهِ من رومية . ثم اجتاز

اليها محفوفًا بالفؤاد والحرص بظاهر التجلة والاحتفاء واستعدت العمارة للاقلاع فنشرت الشرع واخذت السفن تسير الهوينا مقلعة عن الميناء وإن صدقت رواية مؤرخي ذلك العهد يكون عدد السفن الكبيرة في تلك العمارة اربع مئة ومعها اكثر من الف قارب وكانت كلها مشحونة بالرجال واعالي سواريها تخفق بالرايات والشاطئ على رحبه ضيقًا بالمتفرجين والبحر هادئًا والهواء لطيفًا والشرع التي كست وجه المياه ثوبًا ابيض تسير سيرًا لينًا على بساطها المتجعد رتشخص لعين الناظر فقط منظرًا جميلاً بديعًا واما لعين المتأمل بالنتائج الصادرة عن نجاح هذه الحملة فمشهدًا ساميا رفيعًا

وقد ظهر بالامتحان ان تلك السفينة البديعة التي قدمتها متيلدا لزوجها ليست مجرد لعيبة فانها سارت في مقدم السفن والعيون تحدق بها فوجب انها آخذت في السبق شيئًا فشيئًا فسر وليم ان يراها هكذا سريعة الجري وامر ربانها ان يظل سائرًا غير مبالٍ بما وراءه حتى اذا جاء المساء وظهر ان المسافة بينها وبين بقية العمارة خلفها اصبحت شاسعة بحيث غابت كل السفن عن عيون من كانوا على ظهر ميرا لكنهُ اذ كان المساء قد اقبل والظلام خيم توقعوا انهم ينظرونها في الصباح فلما كان الغد استولى عليهم الانذهال والاندهاش حين التفتوا الى جهة الافق الجنوبية ممعنين النظر. ولم يجدوا للعمارة خلفهم ادنى اثر . نقلوا وارتابوا واما وليم فلم يبالِ بذلك وامر ان تطوى الشرع وانفذ رجلاً الى اعلى السواري للاستكشاف والاشراف فلم يرَ شيئًا ووليم ظل في الظاهر غير مهتم فامر بتهيئة الفطور . وكثر على المائدة من وضع الخمور وغيرها من الوسائل الداعية الافكار الى هجر القلق والارتياح الى الفرح والسرور . ثم ارسل المراقب مرة ثانية الى رأس السارية وسأله وليم «ماذا ترى فاجاب بعد ما حدق بنظره ارى اربع لطخ صغيرة جدًا في الافق» ثم زادت حدة المسرة التي اوجبها هذا الاستكشاف بالصراخ «ها انذا انظر اكثر فاكثر — هي السفن — نعم كل العمارة ظهرت»

ثم ما لبثت ان دنت من ميرا التي عادت الى نشر شراعها وراحت كلها تشق العباب نحو انكلترة وقد جعلت طريقها نحو الشرق حتى اذا جاءت البر لا تكون بعيدة عن مضيق دوفر وفيما كانوا يقتربون نحو الشواطئ الانكليزية كانوا يراقبون بكل اعتناء وجود البعض من سفن هارلود التي توقعوا طبيعيًا مصادفتها في تلك الجهات جائلة لحماية الشطوط البحرية لكنهم لم يجدوا واحدة منها نعم ان هارلود كان قد سيرها للطواف والحراسة وكان منها الكثير في مقدمة الثغور لكنهُ اتفق لحسن حظ وليم ان تلك التي عهد اليها حراسة

هذا القسم من الجزيرة كانت قد انسحبت منهُ منذ ايام بداعي نفاد زادها وذخائرها . وهكذا لما وصلت العمارة تلك الجهة لم تصادف عدوًّا معارضًا فرست في خليج بيفنسي الذي تراءى لها متبسمًا مادًّا ذراعيهِ لاستقبالها وعندها اخذوا في التأهب للخروج الى البر . واول من وطئت اقدامهم الشاطئ فرقة من رماة النبال المنتخبين فتقدم وليم معهم وإن كان متلهفًا للوصول الى البر زلت قدمهُ وهو يطفر من القارب فقط فتطير الضباط وجميع من كانوا حولهُ وعدُّوا ذلك فألاً رديًا اما هو فحضرتهُ سرعة الخاطر في الحال ومد ذراعيه وتمسك بالشاطئ مدعيًا انهُ فعل ذلك تعمدًا وقال في نفس الوقت « هكذا اقبض على هذه الارض ومن هذه الدقيقة تكون ملكي » ولما نهض اسرع احد ضباطهِ الى كوخ مجاور على الشاطي واتى منهُ بقليل من « البلاَّن » الى وليم ووضعهُ في يده وقال لهُ انهُ هكذا اعطي ملكهُ الجديد وتلك كانت عادة في ذلك العهد ان يعطى المتملك الجديد الاراضي التي اشتراها او نالها بطريقة اخرى . فكان المقتني الجديد يذهب الى الارض المراد امتلاكها وهناك اصحابها الاولون ينتزعون شيئًا ما فيها ويقدمونهُ لهُ قائلين «هكذا نخوِّلك امتلاك الارض» وحالما خرج العساكر الى البر طفقوا يقيمون المعسكرات و يشيدون الاستحكامات تفاديًا من عدوّ مباغت او هجوم مفاجئ ريثما كانت القوارب آخذة في تكملة النقل من السفن الى البر وكان بينهم عدد عديد من الفعلة والعاملين في صناعات مختلفة من المهندسين ومهدي الطرق والنجارين والبنائين وغيرهم فكانوا قد احضروا معهم ثلاثة ابراج او بالحري حصون من خشب هيأوها قبل السفر في نورمندي واتوا بها لتقام عند وصولهم لحفظ الذخائر والمؤن

واذ ذاك سير وليم فرقة من الخيالة لتردد تلك الاطراف وتتجسس الانباء عن قدوم هارلود فرجع اولئك الفرسان واحدًا بعد الاخر بعد ما ضربوا في تلك الاطراف وتوغلوا في التجسس والاستكشاف وافادوا انهم لم يقفوا لقدوم العدو على اثر وكانت الاستحكامات حينئذٍ قد أُقيمت ولم يبق من شاغل في الافراغ والتنظيم فامر وليم ان تشعل النيران بالخيام لاجل الليل وتستعد العساكر لمناولة العشاء وقد أُعدَّ لهُ العشاء في ذات خيمتهِ فتناولهُ مع قوادهِ بمزيد الانشراح والابتهاج و بغاية اطمئنان البال من جهة ما صادفهُ ذلك اليوم من النجاح في سائر الاعمال

وقد كانت كل كل حوادث الخروج الى البر ومتعلقاتها داعية الى الرضى والاستحسان سوى واحدة وهي ضياع سفينتين من العمارة فاستعلم وليم وهو على العشاء عما اذا كان قد

جدّ شيء بخصوصها فاجيب ان الافادات الاخيرة عنها تعلن انقذافها على الصخور وإنكسارها . وكان احد المنجمين قد تنبأ بخصوص تلك الحملة قبل خروجها من نورمندي وأعلن بمقتضى مراقبة النجوم ان وليم سوف ينجح في عمله ولا يصادف ادنى مقاومة من هارلود وكان ذلك المنجم على ظهر احدى تينك السفينتين المفقودتين فمات غرقًا فعندما بلغت وليم تلك الافادات قال « ما اشد حماقة ذلك الرجل الذي ظن انه بواسطة النجوم يستطيع معرفة مستقبل غيره بينما هو لم يعرف شيئًا عن مستقبل نفسه » ويروى ان ذلك الطعام الذي تناوله وليم وقتئذٍ أُعدّ له على حجر كبير عوضًا عن المائدة ولا يزال ذلك الحجر الى الان يدعى « حجر الظافر » وفي اليوم الثاني اخذت العساكر تتقدم نحو الشرق ولم يكن في طريقهم عدوٌّ يحاربهم او يصد تقدمهم وقد حال الخوف والرعب دون سكان البلاد التي كانوا يجتازونها فلم يبدوا ادنى مقاومة لهم وكان الباعث على زيادة خوفهم بعض تعديات اتاها بعض العساكر فأستولى الهلع على سكان الدساكر والقرى عند مفاجئتهم بتلك القوات الغريبة العظيمة التي غشيت شواطئهم وانتشرت في انحائهم فاركن بعضهم للهرب الى داخلية البلاد و بعضهم ساقوا عيالهم وحملوا اشياءهم الثمينة والتجأوا الى الصوامع والكنائس متوهمين ان اماكن كهذه يهيب حتى العساكر الدخول اليها ما لم يكونوا وثنيين والبعض الاخر عزموا ان يختبئوا بين الهشيم والعليق حتى تمر عاصفة اولئك الثائرين عليهم وظلوا يتقدمون حتى اتوا هضبة قرب البحر فاختارها وليم محلاً موفقًا لخيم فيها محصنًا مستحكمًا وكان الى الغرب منها وادٍ وفي اسفله قرية تدعى هستن لم تكن قبلاً ذات شان واهمية ولكن بسبب المعركة الهائلة التي حدثت بالقرب منها بعد وصول وليم ببضعة ايام لا يزال ذكرها حيًا للان وما اتم وليم نقل الذخائر والمعدات الى تلك الهضبة وكان يفرغ من اقامة الحصون والقلاع حتى بلغته الاخبار بواسطة الرقباء والجواسيس من نحو الشمال ان هارلود قادم عليه بعد اربعة ايام في طليعة مئة الف مقاتل

الفصل العاشر

معركة هستن

لا ريب في ان القارئ يذكر أنّ اخبار جلوس هارلود على العرش الانكليزي كانت بلغت وليم اولاً بواسطة توستغ اخي هارلود يوم كان يمتحن قوسه وسهامه في روان وتوستغ هذا كان الدّ عدوّ لاخيه وكان مدة ملك ادورد حاكمًا على شمالي انكلترا في مقاطعة قاعدتها مدينة يورك واذ كان قد جلي عنها خاصم اخاه هارلود وطالبه بحق العود

اليها وكان من نتيجة هذا الخصام انهُ طرد من كل البلاد فخرج ملتهبًا بنار الغيظ وحب الانتقام من اخيهِ وعندما جاء ليخبر وليم عن خيانة هارلود لم يكن من قصده فقط انهاض وليم العهول بل اراد ان يعمل هو ايضًا فاخبر وليم انهُ ذاتهُ لهُ سلطة في انكلترا لم تزل من دونها سلطة اخيهِ وانهُ اذا كان وليم يمدهُ بعمارة صغيرة و بعددٍ قليل من الرجال يحمل على اخيهِ و بري وليم شدة بأسهِ وقوة اقدامهِ فاجاب وليم ملتمسهُ وجهزهُ بالقوة المطلوبة غير مواثقٍ ثقةً عظيمةً باقتدارهِ على تحصيل ادنى نتيجة لكنهُ راى أنَّ حملة توستغ هذه لربما شددت بعض الانذار في انكلترا وتمهد طريقًا رحبة لسيره وراءهُ ولهذا لم يرافقهُ بنفسهِ لكنهُ سيرهُ بتلك القوة وظلَّ هو ننسهُ في نورمندي يباشر التاهبات التي اتينا على شرحها في الفصل السابق . اما توستغ فلم يقترب حملة على اواسط الانكليزية بدون ان يزيد القوة التي سيرها بها وليم ولهذا اجتاز بسفنه دوفر واتجه شمالًا نحو شواطي الاوقيانوس الجرماني الشرقية ساعيًا في التفتيش على مساعدة حتى جاء اخيرًا بلاد نروج وعقد اتفاقًا مع ملكها المسمى هارلود ايضًا فهذا الملك كان وحشيًا وقد قضى غابر حياتهِ يجول في البحر غازيًا فتعهد لتوستغ بانهُ يمدهُ اروه في هذه الحملة وعليهِ سار توستغ راجعًا لشواطىء انكلترا مغادرًا ملك نروج يتاهب ليلحق بهِ وكل ذلك حدث في اوائل شهر ايلول حين كان وليم في نورمندي يتأهب بعماراتهِ وجنودهِ لمحاربة الملك هارلود الانكليزي بينما كان هذا محرومًا من الوقوف على مقاصد الخصوص سواءٌ كان من نحو الاستعدادات الشمالية او الجنوبية ثم اجتمعت عمارة النروجيين في حد واحد . وقد اصاب رجالها دعي اضطراب امام العواصف والانواء ما اصاب رجال وليم من الخوف والحذر وقد رأى بعضهم رؤى واحلامًا تعبرون بها وعدوها سوءًا وقالوا عليها خرافات . عديدة شان اهل تلك العصور الذين كانت عندهم الاوهام راسخة كما يروى . فمما رآهُ احدهم ان تابعات حاملات شواطىء الانكليز وهناك خرج هارلود للقائها وفي مقدمتها امرأة طويلة القامة ماثلة . غير ممتطية ذئبًا . وفي هذا الذئب جسد انسان مضرج بالدم وكان يلتهمهُ وهو سائر الى الامام ثم رأى امرأة فريسة اخرى فابتلعها كالاولى ومن جملة الاحلام المشومة الحلم الآتي وهو انهُ بينما كانت العمارة آخذة في الاقلاع راى بعضهم اسرابًا من النسور والطيور الجارحة الجائعة جاءت تحومت على قلع وحبال المراكب كأنها تروم مرافقتها في الحملة وحين رأس صخرة في شاطىء انتصب رسم صورة امراة وجه عبوس يسف بين الشراسة والضراوة وفي يدها سيف مسلول وكانت مهمكة

في عد المراكب مشيرة اليها وهي تعدها بسيفها وكانت تمثل بمنظرها شيطان الخراب والدمار فدعت الطيور وشجعتها على الاقدام وقالت لها « اذهبي ايتها الطيور الجوارح بدون خوف فلسوف تصادفين كثيرًا من الفرائس وهوذا انا ذاهبة معكِ » .

ومعلوم ان هذه الاحلام كانت تنبيء عن موت وهلاك اعداءهم الانكليز كما انها تحتمل النبوة عن موتهم هم انفسهم على ان العساكر بسبب ظروفهم الزمنية وبداعي التغيرات الجوية والمخاطر المتنوعة التي اصبحوا محاقين بها كانوا مائلين لاطلاق هذا التشاؤم عليهم وردّ مخاوف تلك الاحلام اليهم ولكنّ قائدهم لم يبال باعتبارانهم هذه بل اقلع وسار مجتازًا البحر الجرماني لاحقًا بتوستغ ليتحد معهُ على تخم اسكوتلندا ومن هناك انطلقا بقواتهما على الشاطىء الجنوبي منتهزين فرصة تسنح فتسمح لها بالخروج الى البر . اخيرًا أتيا الى بلدة سكاربورو وعوّلا على الهجوم اما سكان تلك البلدة فحاصروا داخل اسوارها واغلقوا الابواب في وجوه المهاجمين واستعدوا للدفاع وكانت البلدة قائمة في اسفل تلة يحيط بها من احد الجهات احدورٌ عالٍ ويروى ان النروجيين تسنموا ذروة هذه الاكمة وهناك جمعوا مقدارًا عظيمًا من الحطب والاغصان والقشور والجذور وغيرها من المواد القابلة الاحتراق ثم اشعلوها ودحرجوها على المدينة فانهالت شبه كرةٍ من نار تتقد بلهيبٍ عظيم وتزداد اضطرامًا في انحدارها على ان القارئ اللبيب لابد من ان يقف هنا مرتابًا في صدق رواية كهذه اذ من المستحيل ان كومة كهذه من الوقيد مهما كان حزمها متينًا تنحدر على الوجه المذكور على انه لا يبعد ان يتم ذلك بواسطة قطعٍ كبيرة من الحطب تشدّ باسلاك حديدية على هيئةٍ اسطوانية او كروية وتحشى بمواد قابلة الاحتراق وتدحرج من اعالي القمم في احادير فتبقى منهالةً الى الاسفل

ولنرجع الان الى سرد تتمة الرواية في شان تدمير هذه المدينة فنقول ان تلك الطريقة التي اتخذها النروجيون على ما مرّ معنا نجحت فاشتعلت المدينة كلها وسلم سكانها لتوستغ وقومه الذين بعدما [illegible] اقاموا بمراكبهم واستأنفوا تطوافهم . . اما نبأ خراب هذه المدينة فبلغ الملك [illegible] في لندن في نهاية شهر ايلول وهو مشغول بتوزيع قواته وتفريقها عن التخوم [illegible] في الفصل السابق اذ كان قد ترجح عندهُ ان الحملة النورمندية قد ارجئت الى الربيع [illegible] ذاك فرصًا عن تفريق جيوشه في مراكزها الشتوية اضطر ان يجمعها [illegible] ربما يستطيع من [illegible] ويخرج بهم لدرء هذا الخطر الجديد الغير المنتظر واذ [illegible] دخل توستغ واصحابه نهر [illegible] وكان [illegible] تصدهم الوصول الى

مدينة يورك قاعدة المقاطعة التي كان يحكمها توستغ سابقاً وكانت قائمة بقرب نهر اوس الذي هو فرع من نهر همبر الذي اجتازوهُ وجاءوا الى ثغر اوس ومنهُ صعدوا الى بقعة بقرب مدينة يورك وعسكروا فيها ثم تقدموا لحصار المدينة فابدى سكانها بعض الدفاع في الاول ثم عرضوا التسليم بموجب معاهدة ما لبثت ان تقررت بـ[illegible] وكان ذلك نحو المساء فتعين صباح اليوم التالي لدخول توستغ ورجاله الى المدينة وعندئذ اذ شعروا ان غنيمتهم اصبحت لديهم [illegible] رجعوا الى معسكرهم يصرفون ليلتهم بالمسرات والافراح ويبيتون على نية تملك المدينة حين يبزغ الصباح

فحدث في نفس تلك الليلة ان الملك هارلود تقدم لتخليص المدينة وكان يتوقع انه يشاهد العدو محيطاً بها من كل جهة يشدد عليها الحصار لكنهُ عند اقترابهِ لم يصادف ما يحول دون دخوله اليها بل في الحال فتح له سكانها الابواب وادخلوهُ وكل جيشهُ بينما توستغ وجميع رجاله النروجيين كانوا غارقين في سبات النوم متنعمين بلذة احلام الفوز والظفر غير مشعرين بالانقلاب العظيم الذي طرأ على احوالهم تحت الليلة . وما عطس انف الصباح حتى نهض توستغ ينظم فرقة من الرجال تهيئاً لامتلاك المدينة ومع ان الوقت كان في ايلول والطقس بارداً وعاصفاً حدث ان طلعت شمس ذلك اليوم بعظم الاشراق واللمعان وسكنت حركة الهواء وصفا الجو من اكدار الغيوم وكان كل شيء يدل على الدفء واستحكام الحر[illegible] واذ كان دخول توستغ وقومهُ الى المدينة مقصوداً على طريقة سلمية خلواً من جميع المظاهرات العدوانية اصدرت الاوامر لعساكر ان يسيروا بدون العدد الحربية ويتركوا في الخيام كل الاسلحة الثقيلة الماعنة على البصو والتراخي وفيما هم يتقدمون بهذه الهيئة المنزهة عن كل اهتمام واحتياط ابصروا امامهم على الطريق المؤدية الى المدينة غباراً كثيفاً ضارباً في الارض نطاقاً . وعاقداً في عنان السماء سحاباً . ثم انجلى عن فرقة كبيرة من جيش الملك هارلود خارجة اليهم وعلى اهبة الابتاع بهم فاستولى من جرى ذلك العجب والاندهاش على توستغ والنروجيين وكادوا يستطيرون في ايديهم حيرة من رؤية هذا المشهد غير المنتظر وما لبثوا ان تبينوا بريق الاسلحة وخفوق الرايات وارتفع بينهم هتاف «العدو . العدو» ممتداً الى كل جهات الجيش فاحدث في الجميع ذعراً ورعباً اما توستغ وهارلود النروجي فاوقفا رجالهما في الحال ورتباهم على الصورة وقوفاً متأهبة للاشتباك في القتال . وهكذا فعل الملك هارلود برجاله ثم اخترقهم الى المقدمة واصطف الجيشان متقابلين متوقعين اول اشارة تمد ولاصلاء نار الحرب وادارة رحى الطعن والضرب

وإذ ذاك طلع من الجيش الانكليزي عشرون خيالاً غارقون بالحديد والفولاذ وحاملون راية المدنة . هؤلاء جادوا حتى صاروا على مقربةٍ من صفوف النروجيين فطلب المقدم عليهم مواجهة توستغ رفي اقترابهِ منهُ ابلغهُ ان اخاه لا يشاء محاربتهُ بل بالعكس يروم ان يعيش معهُ بالاتحاد والاتفاق وعليهِ فهو يعرض عليهِ السلم ان كان يسلم اسلحتهُ ولهُ من اخيهِ لقاء ذلك ارجاع املاكه السابقة واعاد ما كان لهُ من سالف الشرف والاعتبار فاستمال هذا البلاغ قلب توستغ وحدثتهُ نفسهُ بالرضى «والقبول والنفس خضراء» فاطرق برهة من الزمان ثم سأل الرسول عما عينهُ اخوه من الترضية لصديقهِ ورفيقهِ هارلود النروجي فاجابهُ « قد عين لهُ سبع اقدام من ارض انكلترا قبرًا لهُ وسيكون لهُ اكثر من ذلك قايلاً اذا اراد . على ما نرى رجل طويل النجاد» فقال لهُ توستغ اذًا اخبر اخي ن يتهيأ للقتال اذ انني لست بخائن من قطعت معهُ عهد الوفاء ووعدتهُ بالقيام على الولاء في السراء والضراء فرجع المرسلون بجواب توستغ الى معسكر الملك هارلود وقامت بين الفريقين سوق الحرب ومن المقرر ان بغض الجيش الانكليزي الشديد كان موجهًا على الخصوص نحو النروجيين وملكهم من وجه انهم اعتبروا غرباء سائرين سائقهم النخوة والتطفل على الثورة والهجوم بدون داع حقيقي وبغير باعث جوهري وبموجب ذلك حدث انهُ ما ابتدأ القتال حتى أُصيب هارلود النروجي بسهم في حلقهِ صرعهُ على الارض جديلاً . وعندها حاول الملك هارلود بطال الحرب وسعى جهدهُ بالصلح مع اخيهِ فلم يجدهِ ذلك فتيلا . لان توستغ حين ابصر رفيقهُ مطروحًا مضرجًا بدماءه احتدم غيظًا وسد اذنيهِ دون كل وساطة في السلام . واندفع يدبر رحى الحرب بملء التحمس والاقدام حتى ورد حتفهُ وذاق كاس الحمام وعند ذلك عدم الباقون من رجالهِ كل نشاط للزود والمدافعة فسمح لهم الملك هارلود بالانكفاء الى مراكبهم بشرط تسليم اسلحتهم فقبلوا اشتراطهُ هذا ورجعوا ادراجهم الى سفنهم ونشروا شرعها واقلعوا . اما الملك هارلود فاذ كان قد بلغهُ وصول وليم الى الشواطي الجنوبية وطلوعه الى البر جمع رجالهُ ولم شعث قواتهِ وخرج بهم بين ماش وراكب . يلقى هذا العدو الشديد الساعد والعظيم الجانب . اما جيشهُ فرغماً عما نالهُ من الظفر والانتصار كان قد اصبح ضعيفًا خائر القوى فاقد الجلد والاصطبار . وقد انضتهُ الاسفار الطوال . وانهكتهُ مكابدة الاخطار وملاقاة الاهوال . وحطّ من عالي بسالتهِ ما تخلف منهُ بين قتلى وجرحى في ساحة القتال . حتى ان الملك هارلود نفسهُ كان قد اصيب بجرح وان يكن ليس بليغًا الى حدّ يمنعهُ عن مداومة زيادة فجرّد من ضعفهِ قوة . وجدد من خواره عزمًا ومروة .

وسار قاصداً الجنود بملء الجد والاجتهاد . ناشراً في طريقهِ العيون والارصاد . مشدداً الالحاح بالايعاز الى جميع قواده في سائر الانحاء والاصقاع . ان يوافوه متأهبين بغاية ما يكون من الاسراع . وكان من قصده هذا ان يخف بعدّده وعدده ويفاجئ وليم على التخوم الجنوبية قبلما يتحرّب فيها الحصون والقلاع . وترسخ لهُ هنالك قدم النضال والدفاع . اما وليم فلكي يأمن طوارئ المباغتة . ويسلم من بوائق المفاجأة . سير رقباء من فرسانه يجوسون خلال الطرق ويتجسسون معابر السبل يتنسمون ابناء العدو ويستروحون حركات قدومهِ ويرجعون الى وليم بالخبر فحدث ان سعاة هارلود المتقدمين امامهُ لقوا رقباء وليم وابصروهم حالما امعنوا في الجري راجعين الى المعسكر مخطرين منذرين فاخفق سعي هارلود في مباغتة وليم وزاد بلة يأسهِ طينة ان وجد في اقترابهِ ان قوات وليم تعادل ضعفي قواتهِ وكان من الخرق ان يخاطر في مهاجمة عدو كهذا متمنع في حصونهِ متفوّق بكثرة عدده ووفرة ذخائره وقواته فلم يبقَ لديهِ سوى واحد من اثنين اي اما ان يتقهقر راجعاً او يتخذ لهُ مركزاً حصيناً لعلهُ يقوى على صد المهاجمين ورد جماح الثائرين . وان كان على مفاتحتهم ليس من القادرين

فنصح لهُ بعض مستشاريه ان لا يعرض نفسهُ لاخطار القتال بل ينقلب راجعاً الى لندن جارفاً بطريقهِ او مدمراً كلما يراهُ يمد جيش وليم باقل مساعدة وبذلك يضيق على الاعداء ويشدد حاجتهم الى الزاد على حين يستحيل عليهم سدها وتناولها من عبر البوغاز فضلاً عن انهُ يضطرّ وليم الى غزو كل هاتيك الاطراف فيستأ الاهلون مما يسومهم اياه وليم من الخسف والحيف والهون . ويندفعون للقيام عليهِ . ويتحدون يداً واحدة وقلباً واحداً عضد هارلود والانضمام اليهِ . اما هارلود فبعدما اصغى مليا الى هذه المشورة وتدبرها قال انهُ لا يقدر ان يعقد نيتهُ على العمل بموجبها اذ لا يسعهُ مخالفة واجباتهِ في خراب بلاد من اكبر فروضهِ صيانتها ووقايتها ولا يرى لهُ حقاً في رغم رعاياه على شد ازره بواسطة تعريضهم للرزايا والنكبات من عدو جائر قاس فيعدل على الوقوف في وجه وليم ليس كمهاجم مزاحم بل كمدافع ممانع وعلى هذا اشتى بقعة تبعد ستة او سبعة اميال عن معسكر وليم وخيم فيها متحصناً متمنعاً ومعلوم ان كلا الجيشين لم يكن مطلاً على الآخر ولا كان واحد منهما واقفاً على عدد او مقاصد او حركات الآخر وكانت المسافة بينهما بعيدة والسكان هنالك عرضة الرعب وايجاس الخوف الشديد ولم يكن احد يعلم عند اية نقطة تلتقي سحابتا ذلك الخطر والهول اللتين كانتا على وشك الاصطدام وعلى اية مقاطعة سوف تخيم عاصفة

الخراب والدمار عند اقتراب ساعة اصطدام تينك السحابتين ولهذا كنت ترى الاهلين مركنين الى الفرار من كل صوب محمولين برياح الهلع وأزعب اللذين لا مزيد عليهما وحاملين معهم الطاعنين في السن والعاجزين عن الهرب جهد الاستطاعة وناقلين ايضاً ما وسعتهم المقدرة من الكنوز والحلى ومخفين في الكهوف والمغاير ما لم يستطيعوا الى اخذه سبيلاً . وهكذا كان شان سكان الارض بين ذينك المعسكرين حتى لم تمض مدة وجيزة الاَّ تفرقوا متشتتين «واصبحوا لاترى الاَّ مساكنهم» خالية خاوية . وكان لهارلود بين قواد جيشه اخوان احدهما يدعى غرث والاخر ليوفن . هذان كانا اشد حبًا واخلاصًا لاخيهما الملك من توستغ الذي سبق معنا ايراد ما كان عليهِ من الحقد والبغض له فالتصقا بهِ وعملا على مودتهِ واظهرا نهاية الحرص والاعتناء بسائر شؤونهِ حين دنت منه ساعة الخطر وشددت ضغطة الهول وطأتها على حياتهِ وهما هما اللذان اشارا عليهِ بالانسحاب الى لندن وعدم تعريض حياتهِ ومملكتهِ لاخطار حرب لاتحمد عواقبها ولا يرجى له فيها فوز واستظهار فلما اتم هارلود تحصين مركزه اعلن لاخيهِ غرث رغبته في الركوب معهُ نحو معسكر وليم رائداً مستكشفاً وقد كان استكشاف كهذا في تلك الايام اقل خطرًا منهُ في وقتنا الحاضر لان تجسساً كهذا لا يصعب على العدو في هذه الايام ان يرقبهُ بواسطة المراقب (النظارات) من مسافة بعيدة ويطلق على المتجسسين قنابل مدافع تنهال عليهم انهيال المطر . وتنفجر بينهم بكرات نار لاتبقي ولا تذر . فكان الخطر حينئذٍ محصورًا بافتراض مطاردتهم من المعسكر بطليعة من الفرسان . او احاطتهم بكمين لم تكن مناجأتهِ في الحسبان . وتفاديًا من هذا الخطر امتطى هارلود وغرث اكرم الجياد واشدها صبرًا على الجري السريع واختارا نخبة من الرجال الاشداء الاقوياء لحراستهما وسارا حتى وصلا خيام وليم وهناك تسنى لهما بواسطة ذروة صعدا اليها ان يستطلعا طلع كل المعسكر ويسبرا غور ما لدى وليم من القوات والتجهيزات ولم تفتهما رؤية شيء من السرادقات والخيام والحصون والعساكر والقواد والضباط والفرسان وابصرا السطاط العظيم المضروب لوليم وعليهِ راية الصليب المقدسة تخفق بملء اليمن والبركة وترف باجنحة النصر والظفر حتى استولى على هارلود الاندهال من عظمة ما رأى ونظر . وبعد ما صرفا برهة من الزمان غارقين في بحر التامل والامعان . وهما صامتان لايفوهان ببنت شفة قال هارلود لغرث اني ارى من الحكمة بعد ما نظرا هذه القوات التي لاتقاوم ان يعدل عن القتال ويتبع مشورة القائلين بالرجوع الى لندن في الحال . ذلك خير وابقى فاجابهُ غرث ان « في الصيف ضيعت اللبن » واما الان فلم تعد

تلك المشورة تنيد من وجه انها تقضي بتقويض الخيام وهدم المعاقل وهذا قد يفسر عند جميع الذين يسمعون به اننا متقهقرون خوفاً وعجزاً واسترخاء . لا رواغاً واحتيالاً ودهاء .
و بعد ما فرغا من المداولة بهذا الشان رجعا وحاميتهما الى الخيام ونية هارلود معقودة على الثبات في وجه العدو ما استطاع الى الثبات سبيلاً . حتى يتمكن من دحر وليم ورده على الاعقاب او يقضي الله امراً كان مفعولاً . وعليه عاد وانفذ بعض السعاة للتجسس والمراقبة وكانوا نورمنديي المولد يحسنون التكلم بالافرنسية وقد جاوؤا انكلترا مع كثيرين غيرهم من النورمنديين على ايام الملك ادورد ومن ثم استطاعوا بكل سهولة ان يخفوا امرهم و يمتزجوا بقوم وليم بدون خوف وقوع شبهةٍ عليهم او حصول ادنى اشتباه بهم وتمكنوا من فحص كل شيء بتدقيق ثم قفلوا راجعين الى هارلود بانباء ما راوا وسمعوا فقرروا عن شدة هول مصادمة جيوش وليم بحرارة . ومرارة الصبر على الثبات امام ابطاله الكرارة وكان في جيش وليم فرقة كبيرة من رماة السهام اللذين اصطلحوا على قص الشعور وحلق الرؤوس والخروج بهيئةٍ بعثت اولئك السعاة على ان يظنوهم كهنة وعليه ابلغوا هارلود في رجوعهم انهم رأوا في معسكر وليم الكهنة والاراخنة اكثر من رجال الحرب وعساكر القتال وحدث ايضاً في نفس ذلك اليوم ان وليم بعث بعدد من الفرسان الى معسكر هارلود وليس كجواسيس بل كسفراء للمباحثة بشان الصلح لانه لم يكن يشاء اصلاء نار الحرب اذا امكنه الحصول على ما كان يعتقد انه ملكه الحقيقي بطريقة ساعية فعوّل على تجربة الوسيلة الاخيرة في حمل هارلود على الرضى والتسليم قبل الوصول الى حد يقضي باشهار السلاح . وشهود ساحات الطعن والكفاح . و بناء عليه ارسل سفراءه يطرحون امام الملك ثلث قضايا وقد وكلت قيادة هذه السفارة الى راهبٍ يدعى ميغورت فتقدم هذا محفوفاً بالحرس نحو خيام هارلود رافعاً بيده راية الهدنة وعارضاً القضايا الثلث الآتية التي يتوقف تجنب القتال على قبول هارلود بواحدة منهن

اولاً على الملك هارلود ان يسلم وليم العرش كما حلف له على العظام المقدسة في نورمندي

ثانياً او ان يتفق هارلود و وليم كلاهما على طرح مسئلة الخلاف بينهما امام قداسة البابا و يرضيا بحكمه العدل . وقوله الفصل .

ثالثاً او ان يحل المشكل بعراك انفرادي يتبارز فيه المتزاحمان الى العرش الانكليزي امام نخبة من الجيشين . ومن البديهي ان هارلود كان لا يرضى ولا بواحدةٍ منها لان

الاولى كانت تقضي بتخلي هارلود وتخلفة عن كل شيء والثانية ترتب عليه قبول حكم لا بد من صدوره ضده لان البابا كان قد حق دعوى وليم كما سبق معنا ولا يلبث الان ان يحكم له بها ومن البعيد انه ينقض حكمه الاول والثالثة تعرضه لخطر اندحار لا يسعه تلافيه وانخذال فيه من الذلة والهول ما فيه . لانه كان رجلاً ضعيف البنية نحيف الجسم قليل القوة بعكس وليم فانه كان مشهوراً بعظم جثته وشدة قوة عضلاته . نعم ان المبارزة الشخصية بالاسلحة النارية في الوقت الحاضر لا مزية فيها لاشتداد السواعد وقوة الاعضاء واما في ذلك العهد الغابر حين كانت المبارزات تقضي بالفؤوس والحراب والسيوف والرماح فكانت حاجة هذه القوى شديدة واعتبارها عظيماً جداً والخلاصة ان هارلود رفض قبول كل من هاتيك القضايا ورجع الراهب الى وليم بالافادة على ان وليم لم يقنط من حبوط مسعاه في المصالحة بل ارسل مرة ثانية يعرض على هارلود قضية رابعة مفادها انه اذ كان هارلود يعتبر وليم ملك انكلترا او يعترف بسيادته عليها يسلم البلاد لعهدته وعهدة اخيه غرث ليحكما عليها تحت سلطانه المطلق ويرجع الى نورمندي ويجعل مدينة روان التي قاعدة امارة الان عاصمة كل المملكة المتحدة ما شاء الله من الزمان فاجاب هارلود انه ليس يقادر في اية حالة كانت ان يتنازل عن حقوقه كملك انكلترا وعليه فهو يابى قبول هذه القضية ايضاً . وزاد على ذلك قوله انه يود من كل قلبه حسم هذه المشاكل بدفع المال بمعنى انه اذا كان وليم يعدل عن حملته ويرجع الى نورمندي مقفلاً مطالبة بشان العرش الانكليزي فهو يدفع له قدر ما يشاء من الاموال على ان ذلك لم يقع عند وليم موقع الرضى والاستحسان لانه كان في اعتقاد نفسه وارث الحقيقي للملك انكلترا فضلاً عن ان بواعث عزة النفس والشهامة كانت تدفعه في الاصرار على طلب هذه الحقوق المقدسة في عينيه وقد انقضي ذلك النهار بطوله ونفس فيه كل منهما ... ولات بشان الصلح عبثاً ولما ارخى الليل سدوله ... ضباط ... يتضايقون من ثقل التأخر ويتذمرون من طول شقة الابطاء ... وليم ... وفي هذه المماطلات من وجه ان كل ساعة تفسح بها من اجل القتال تهيئ هارلود الحصول على قوات جديدة بينما هم انفسهم لا ينتفعون منها بشيء وعليه فانتصارهم يضعف شقته كلما طالت مدة تأخر الحرب ولاجل ذلك وعدهم وليم بالحمل على الملك هارلود في ... في ذات صباح اليوم التالي . واذ كان وقت المعركة الاخيرة الماثلة على الابواب دنت افكار هارلود تضطرب اكثر فاكثر وتشوش بتوقع المخاوف والاهوال حتى ان اخويه انسهما قلقاً لهذه الاحوال . وكان يزيدهما بلبالاً لا

تذكرهما القسم الذي اقسم بهِ هارلود وتلك البقايا المقدسة التي تشهد عليهِ وتمكن فعلة وتأثيرهُ ولما يكونا متحققين قيام عذر اخيهما باتمامهِ القسم على طريقة الاضطرار وانهُ يبرّئهُ من طائلة الجريمة واللعنة في الموقف الاخير فارتأيا قبل خوض معمعة القتال ان يتنحى هارلود عن القيادة ليتقلداها هما ثم قالا لهُ «لا يسعنا ان ننكر انك حلفت اليمين وبغض النظر عن الظروف والاحوال التي اضطرتك ان تفعل هذا نرى الاصوب انك تتنكب بقدر الامكان تعمد الحنث بما اقسمت والاولى انك تغادر الجيش وتمضي الى لندن وهناك تقدر ان تقوم بصيانة المملكة بتجهيز قوات جديدة ونحن هنا ننوب عنك في مباشرة القتال وبهذا نصرف عنا غضب الله اذ نكون قائمين بواجب الدفاع عن الوطن في وجه عدو غريب مهاجم» . اما هو فلم يوافقهما على رأيهما هذا بل قال لهما ان قلبهُ لا يطاوعهُ على التنحي في ساعة دنو الخطر ولا يراهُ لائقًا بشهامتهِ ان يتركهما ويجعل اصدقائهِ عرضة لويلات حرب يكابدونها لاجل وقاية تاجهِ الملوكي . وعلى هذا النحو كنت ترى الجيشين في تلك الليلة قبل القتال ولا ريب في ان افكار رجال هارلود في ظروف كهذه كانت مغشاة بظلام اليأس والقنوط بينما كانت قلوب رجال وليم ملأى فرحًا ونشاطًا فلزم هارلود شأن غيره من الناس في هاتهِ الحال ان يخفف حمل الاضطراب الذي تثقل بهِ قلبهُ وانضغطت بهِ نفوس رجالهِ بواسطة الولائم والمسكرات . فامر باعداد عشاء فاخر وامدَّ عساكره بكثير من المشروبات . ويروى ان كل معسكرهِ اثناء تلك الليلة كان يمثل مشهدًا طويلاً عريضًا للسكر والبطر بحيث كانت العساكر متألبة جموعًا جموعًا في كل ناحية حول نيران الخيام . بين قعود وقيام . وهرج وخصام . وانشاد اغاني وطنية . ومقاطيع حماسية هجية . وانشاء مراقص بربرية . منقادين للانبعاث فيما كان تدعوهم نشأة الخمر اليهِ . وتبعثهم سورة البيرا عليهِ . اما معسكر وليم فكان يشاهد على هيئة تختلف عن هيئة معسكر هارلود كل الاختلاف فان جميع الكهنة وسائر خدمة الدين الذين فيهِ احيوا تلك الليلة باقامة الصلوات . وتقديم التضرعات والابتهالات . وانشاء التراتيل المختارة والترانيم المستجاده . والاتيان على جميع شعائر السجود وفروض العباده . وذلك بمساعدة العساكر الذين اجتمعوا جماهير في فسحات الخيام وحول نيران المعسكر . ثم طلبوا الراحة في مضاجعهم مشعرين باضافة التحقيق والضمان لنجاح عملهم في الغد بواسطة تعبدهم لله الذي استودعوهُ نفوسهم واجسادهم . ووكلوا اليهِ صيانتهم وحمايتهم . وكان اول عمل اجروهُ في الصباح انهم اجتمعوا للاحتفال في قداس عظيم ومن الغريب ان تمزج الشرائض الدينية او بالحري

المظاهر التقشفية بروح الغزو والنهب . وحب القتال والحرب . فكان الاسقف الذي قام صباحئذٍ في خدمة ذلك القداس لابساً عدة الحرب تحت حلتهِ الكهنوتية والشماس القائم بجانبهِ عند تقديم الصلاة مشرعاً في يدهِ حربة فولاذية على اهبة المسير الى ساحة الوغى حين انتهاء الخدمة وعندها خلع الاسقف حلة الكهانة واعتقل آلة الجلاد . وامتطى جوادهُ الذي كان مسرجاً بجانبهِ واستلم قيادة فرقة من الفرسان . وتأهب للحرب والطعان ثم علا وليم جواداً كريماً اسبانياً يدعى بايارد كان قد أُهدي اليهِ من احد امرائهِ وكان معلقاً بعنق وليم بعض العظام المقدسة التي حلف عليها هارلود بيمينهِ الكاذبة معتقداً انها تكون له عوذة تقي حياته وتحقق قضاء الله العادل القادر . على هارلود الخائن والغادر . ورُفعت بجانبهِ الراية المقدسة التي اهداهُ اياها البابا بواسطة جندي شاب وكان قد عهد حملها الى جندي آخر اكبر منهُ سناً فاعتذر بقولهِ انهُ يود استبدال هذه الخدمة في مثل هذا اليوم بالسيف والرمح

وفي اثناء هذه الاستعدادات للخروج الى القتال وقف وليم محاطاً بحاميتهِ على هضبة في وسط المعسكر وعلى مرأى من جميع الجيوش فاخذوا كلهم ببديع هيئتهِ وضخامة جثتهِ وسعة صدره المصفح بالفولاذ وهيبة جوادهِ الذي كان كراكبهِ معتزاً بمظاهر الهيبة والوقار مختالاً بباهر المباهاة والافتخار . ومتشوقاً لخوض مضمار الوغى بفروغ الاصطبار . ولما انقضت ساعة التأهب والاستعداد سالت تلك الارجاء بجيوش النورمنديين الزاحفة بجلى الابهة والمجد نحو الصفوف الانكليزية على ان تلك المجالي العظيمة ما لبثت ان توارت تحت اطباق الجماهير المتدفقة للهيجاء والتي استفحلت فيها يد الحتوف مدة عشر ساعات صرفت بتسليم نفوس اولئك الالوف لاحكام القضاء واندفاعها لساحةٍ قامت فيها الحرب على قدم وساق . وراجت سوق القتال والاعدام فاصابت بضاعة الارواح اي نفادٍ ونفاق . وانتزعت الرحمة من الافئدة وامحت رسوم الرفق والتوئدة . وبجرت الدماء مرابع الشرايين والاوردة . وظل ذلك النهار مسدودة فيهِ منافس الاقطار . حتى امسى المساء واذا بالنورمنديين ظافرون منتصرون . والانكليز مغلوبون مقهورون . فاستظهرت عساكر وليم وجالت في ساحة القتال ذهاباً واياباً بالطول والعرض . وخيولها تدوس الذين انطرحوا من رجال هارلود قتلى وقد غشيت جثثهم وجه كل تلك الارض . والذين نجوا من حد السيف نكصوا على عقابهم متسابقين نحو الشمال . وقد امتلأت الطرق على طولها بالذين سقطوا فيها صرعى اما من فرط الاعياء . او من كثرة ما نزفتهُ جراحهم من الدماء .

وفي الصباح جمع وليم عساكرهُ وتفقد قوادهُ وضباطهُ وجنودهُ باسمائهم ليرى من ذهب منهم فقيداً وعندها قدم عليهِ راهبان مرسلان من قبل الباقين من جيش هارلود يقولان لهُ ان الملك هارلود مفقود وقد شاع الخبر بانهُ قتل فان صح ذلك فلا بد ان تكون جثتهُ مطروحة في ساحة القتال ولذا قد اتيا لكي يلتمسا منهُ اجازة التفتيش عليها فاجاب وليم طلبهما وانطلقا يفتشان عليها ويبحثان عنها بمساعدة بعض العساكر وقد تراءى للمفتشين مدة ان البحث عن هارلود بين القتلى لا يجديهم نفعاً ولا يأتيهم بفائدة من قبيل ان وجوه جميع الموتى هنالك كانت قد تغيرت هيئاتها واستحالت كلها الى مظاهر متشابهة يعسر التمييز بينها اخيراً عثرت على جثة هارلود امرأة عاشت في بيتهِ زماناً طويلاً وعرفتهُ اكثر من غيرها فدلت المفتشين عليها وهؤلاء حملوها وانصرفوا وهكذا انتهت معركة هستن وبانتهاءها انفرجت الازمة المتعلقة بالعرش الانكليزي فانهُ وان يكن عقبها مظاهرات عدوانية من قبل بعض اصحاب هارلود واتباع ادغرثيلن الذين حاولوا تخليص العرش فقد ذهبت جميعها قبض الريح ومن ثم زحف وليم على لندن وتحصن فيها ثم حمل منها على سائر الجهات التي استروح فيها الثورة والعصيان حتى دوخ كل اطراف البلاد . وادرك من اخضاع سائر اطراف الجزيرة المراد . وجرى الاحتفال بتتويجهِ في ديروستمنستر بغاية الاجلال والاحتفاء . ثم ارسل ودعا متيلدا ولقبها ملكة انكلترا واغتصب جميع من وقف في طريقهِ من اشراف انكلترا اموالهم واملاكهم وقسمها بين القواد النورمنديين الذين ظافروهُ في هذه الحملة بكل اعتناء وابلوا في ساحات الحرب احسن الابلاء . وبعدها صفت لهُ الايام وبسم لهُ الدهر عن ثغر السعد والتوفيق فعلت مكانتهُ وعظمتهُ في عيون جميع اهل نورمندي وانكلترا وظلّ على سنين معتبراً ومعدوداً اعظم ملوك الارض في ذلك العهد واغناها واما سعادتهُ العائلية وراحتهُ الشخصية فسوف يأتي البحث عنها في الفصل الآتي



الفصل الحادي عشر

عصيان البرنس روبرت

ان اهل الطمع والحرص على الشهرة العالمية الذين يفنون حياتهم ويصرفون عنايتهم في ربيع العمر نحو تحصيل المطامع الشخصية ونيل الاماني الذاتية قلما يبالون بسياسة اولادهم

وتهذيبهم ولذلك كثيرًا ما تنقضي سنوهم الاخيرة بمرارة وعذاب منشأهما تطوّح بنيهم في الرذائل وانبعاثهم في التبذير والاسراف واتباعهم الشهوات وسيرهم وراء كل مفسدات الاخلاق وهكذا حدث اوليم فانهُ ما تنفس من اخضاع اعداءه وتسنمهِ عرش السيادة المطلقة على كلتا مملكتهِ في انكلترا وامارتهِ في نورمندي حتى شاب كاس سلامةٍ وسعادتهِ وتشوش نظام ملكهِ بكدر خصام عائلي .

فانهُ كان اسم ابنهُ الاكبر روبرت وعمره حين حمل ابوه على انكلترا اربع عشرة سنة وكان اذ ذاك غاية في الرعونة والطياشة لان امهُ احبتهُ واعزتهُ الى درجة لم تبقِ فيها على تفنيقٍ او تدليه الاَّ بذلتهُ لهُ . ويذكر القارئ ان وليم قبلما اقلع بعمارتهِ الى انكلترا قلد متيلدا نيابة الحكم وخولها السلطة على امارة نورمندي مدة غيابهِ فأُشرك هذا الصبي في النيابة مع والدتهِ وصار يعتبر نفسهُ انهُ بلا شك اهم منها في المركز والوظيفة وبالاختصار نقول انهُ بينما كان وليم يجد في انكلترا بمطاردة اعداءه كان روبرت في نورمندي يشب على الصلف والبطالة . ويرد الرذائل لا يترك في كأسها ادنى ثمالة . وكان ابوهُ كثيرًا ما يشتبك معهُ في تردده من انكلترا على نورمندي في منازعات ومخاصمات كانت متيلدا في كلها تتعصب للابن وكان ابن وليم الثاني المسمى وليم روفوس يغار من اخيهِ الاكبر ويغتاظ من سلوكهِ ولا يصبر على عجبهِ وكبرياءه ويميل الى جانب ابيهِ في هذه القلاقل العائلية فكان فظ شرس الخلق كاخيهِ غير انهُ لم يكن مثلهُ منعماً وبالنتيجة كان مالكًا روحهُ وحاكمًا على نفسهِ وعالمًا كيف يروض الامور ويرود مداخل الاحوال ومخارجها ويخفي في حضرة ابيهِ ما عندهُ من العواطف والانفعالات وكان لهما اخ ثالث اوطأ منهما جانبًا والين عريكةً واسهل مراسًا فكان يعتزل المداخلة ويلزم جانب الحيادة في الخصام ما لم يبعثهُ على ذلك مكرهًا اخوه وليم روفوس لانهُ كان صديقهُ ورفيقهُ حتى ان روبرت كان يعدهُ لهُ عدوًّا وبالحقيقة ان الجميع ما عدا متيلدا كانوا ضد روبرت الذي كان ينظر الى اخوتهِ الاصاغر بعين العجب والسيادة شان كل ابن اكبر يرى نفسهُ وليًا ووارثًا لبيت عامر بالعظمة وآهل بالغنى وابوه الملك عوضًا عن كبح جماحهِ واستئصال جراثيم الكبرياء منهُ تارة بواسطة الحنو والرقة واخرى بواسطة اظهار السيادة الوالدية كان يزيدهُ نكاية وغيظًا بسلقهِ بتوبيخ حاد صارم وكان يلقبهُ في اثناء هذه الْنا نيبات المنزلية «بحذاء القصير» نظرًا لقصر قامتهِ واذ كان روبرت قد بلغ رشدهُ كان يشق عليهِ ويكسر قلبهُ ان يسمع اباه يلقبهُ لقبًا مهينًا كهذا ويوغر صدرهُ حقدًا وحب انتقام .

وفضلاً عما ذكر كان لدبو اسباب اخر للتشكي من ابيو اعظم شاناً واجل اعتباراً فان اباه كان قد خطب له وهو بعد طفل حسب عادة الايام ابنة احد الامراء المجاورين ووريثته الوحيدة وكانت طفلة نظيره واسمها مرغريتا والمقاطعة المعدة لها ميراثاً كانت ماين وهي بلادة غاية في جودة التربة والخصب والغنى على متاخمة نورمندي وكان من شروط الخطبة ان تسلم املاك الخطيبة الصغيرة لابي الخطيب وهذا يظل قائماً في نظارتها والوكالة عليها حتى يبلغ الخطيب اشده وتزف اليو العروس وبالحقيقة ان امتلاك مقاطعة كهذه كان الباعث الوحيد الذي حدا وليم على القبول بمثل هذه الخطبة

فان صح أنّ هذه كانت بغية وليم فقد جرت التقادير على اكثر من مرامو واعظم من انتظاره لان تلك الوريثة الصغيرة ما لبثت ان توفيت بعد ان تسلم حموها املاكها ولم يكن حينئذٍ من يستردها منه فبقيت في حوزتو حتى ادرك ابنه العريس سن الرشاد واذ ذاك طلبها من ابيو مدعياً انها له فابى وليم تسليمها بحجة ان ما حدث بين ابنو في طفوليتو ومرغريتا لم يكن زواجاً بل خطبة — عربون قران في المستقبل يعقد عند بلوغ العروسين سن الزواج الشرعي — واذ قد حال موت مرغريتا دون اتمام هذا القران فروبرت لم يكن زوجها وبالنتيجة لا يسوغ له طلب حقوق زوج بل ينبغي ان تبقى الاراضي في يدي وصيها ومهما يكن من الحقوق التي يدعيها ورثة مرغريتا فواضح ان ابنه ليس له شيء من ذلك

وهب ان هذا الاحتجاج كان مقنعاً وسديداً في عيني وليم فروبرت لم يعده سوى ضرب من المماحكة والتعنت والنكاية وحسبو جوراً وخسفاً من ابيه الذي لم يقنع بما لديو من الاملاك والمقتنيات حتى طمع في سلب ما لابنو وكانت امه متيلدا من رأيه في هذا اما وليم روفوس وهنري فلم يباليا بالمسئلة من وجه حقانيتها او بطلانها بل سرّا بنتيجتها وابتهجا برؤية اخيهما يلتهب حنقاً ويتميز غيظاً من جراء فشلو في محاولة امتلاك تلك المقاطعة .

وكان لخصام روبرت مع ابيو داعٍ اخر لا يقل عما ذكر شأناً واهمية وهو ان وليم كما سبق معنا كان قبل حملو على انكلترا قد اقام متيلدا وروبرت نائبين عنه في الحكم مدة غيابو ففي بداءة الامر كان روبرت بعد صغيراً فكان مرجع الحكم في كل القضايا لوالدتو وعند ما اخذ يشب وينمو طفق يتظاهر بالنفوذ والسطوة واذ كان اليف الطمع وحب الذات وعزيزاً عند والدتو تمكن شيئاً فشيئاً من حصر القوة والسيادة في يده وقد مرّ على وليم منذ بارح نورمندي ثماني سنوات قبلما استطاع ان يمكن سلطانه في انكلترا ويوطد سيادته عليها

على دعائم الرسوخ والثبات وعند خروجهِ من نورمندي فارق روبرت صبيًا في سن الرابعة عشرة عديم القوة والنفوذ بالكلية وان كان عندئذٍ في غاية الشكاسة والطياشة و في رجوعهِ من انكلترا وجدهُ رجلاً ابن اثنين وعشرين سنة واشد شكاسة وطياشة وفوق ذلك رآهُ قابضًا على زمام السلطة والنفوذ وغير راض في التنحي عن الحكم وتسليمهِ لهُ وبالواقع ابى ان يتخلى لابيهِ عن ادارة السيادة في نورمندي محتجًا ان اباهُ كثيرًا ما وعدهُ بهذه الامارة عند ما يبلغ طور الشباب والان فهو يطلب منهُ انجاز وعده ثم زاد على ذلك قولهُ ان هذه الامارة لم تعد ذات شان عظيم في عيني ابيهِ الذي اصبح الان مالك انكلترا وليس في بقاءها تحت سلطانهِ ما يزيدهُ شهرةً وعظمةً فيمكنهُ ان اراد ان يمنحها لابنهِ بدون تكبده خسارةً عظيمة في ذلك على ان وليم لم يحتفل بكل هذه التمحلات ولا وافق على انهُ وعدهُ بامارة نورمندي ومن جهة منحهِ اياها فهو لا يصوب سياسة الرجل الذي يسلم قوتهُ او املاكهُ لاولاده قبلما يكونون قد استحقوا ذلك كوارثين لهُ بعد موتهِ ومن ثم فلا يفعل ذلك مطلقًا ولم يكن قط ليفتكر «بخلع ثيابهِ قبل ساعة نومهِ»

وكان شر الاستياء والغيظ يزداد بفعل هذه المعاكسات وخطبها يتفاقم يومًا بعد يوم لكنهُ بقي مدة سريًا يقيًا لا يتجاوز انباءه ابواب القصر على انهُ حدث بعد ذلك ما رفع عنهُ الخفاء وهتك حجاب كتمانهِ فاستحالت المخاصمة العائلية السرية الى منازعة علنية جهارية وتفصيل ذلك ما ياتي

خرج وليم سنة ١٠٧٦ بعائلتهِ ورجال حكومتهِ الى احدى قلاعه في نورمندي المدعوة ليغل (النسر) ليقضي فيها فصلاً من السنة ففي ذات يوم كان ابنهُ وليم روفوس واخوه هنري في احدى غرف الطابق العلوي من القلعة يلعبان بالنردو وياخذان باطراف التسلية والمنادمة مع نخبة من شبان الحكومة بالعاب مختلفة وكان لتلك الغرفة شباك يقود الى شرفةٍ امامه يطل منها على دار الحكومة في اسفل القلعة فروبرت كان في فسحة تلك الدار مع نفر من اتباعهِ يتمشى مدفوعًا بعوامل الغيظ الناشئة عن بعض مخاصمات سابقة مع اخويهِ فاطل وليم روفوس من الشرفة وراهُ فحاول اضرام جمرة غيظهِ بان صب عليهِ قليلاً من الماء وذلك بعث بروبرت على ان ينشط من عقال الغيظ الساكن ويهب من ضجعة الحرد المادىء الداخلي الى هيجان وحب انتقام لا ينقصهما شيء من مظاهر الجنون فجرد حسامهُ ووثب نحو درج طبقة العليا وهو يقذف بالشتائم واللعنات المخيفة ويتوعد من ارتكب هذا الفعل المهين بالقتل ولو كان اخاه . وعندها اصدى جو تلك الدار

بالصياح والصراخ وعلت فيها اصوات الصخب والضوضاء وتزاحمت الى ساحتها اقدام المتراكضين واختلطت فيها اشارات المنذرين بالويل والثبور واخذ كل يهرول صاعدًا نحو الغرفة التي صب الماء من شرفتها بعضهم لمجرد المشاهدة والبعض الآخر لملافاة الشر ومداركة تفاقم الخطب واتفق ان الملك ذاتهُ كان اول نذير في القلعة فخف مسرعًا الى الغرفة ليحول دون منازعة بنيهِ ويصدهم عن ارتكاب هذا الاثم العظيم وكان ذلك كما رآهُ هو نفسهُ غايةً في الصعوبة يتطلب بذل كل سلطتهِ الابوية وسيادتهِ الوالدية على انهُ اخيرًا تمكن بواسطة مساعدة الحضور من الفصل بين المتخاصمين واخراج روبرت منقطع الانفاس منهوك القوى من شدة الغيظ والغضب الى خارج . اما روبرت فاعتبر اباهُ ضدًا لهُ في هذه المخاصمة وصرح علانيةً بانهُ لم يعد في طاقتهِ ان يصبر بعد على هذه المعاملة الجائرة وقد آنس شيئًا من ميل والدتهِ نحوهُ فذهب اليها متظلمًا متشكيًا وهي قاسمتهُ الكدر وشاركتهُ في مصابهِ واجتهدت في ان تصب زيتًا على امواج غيظهِ المتلاطمة اما هو فلم يقتنع بضروب هذه المجاملة بل قضى غابر ذلك النهار ومساءهُ في اغراء فريق من الشبان الشرفاء الطائشين العاطلين من حلى التهذيب والآداب على شق عصا الطاعة لابيهِ واغتصابهِ امارة نورمندي عنوةً فاجابوهُ الى ذلك واجمعوا سرًا على اخفاء مقاصدهم وكتمانها وعولوا تلك الليلة على مغادرة القلعة والخروج على مدينة روان العاصمة ومحاصرتها وعليهِ فما انتصف الليل حتى امتطى اولئك الثائرون ظهر خيولهم وساروا وفي الصباح اخبر الملك بذهابهم فجند جيشًا قويًا وسيرهُ وراءهم وكان من ذلك أن اخفق مسعاهم في محاصرة روان لان جيش الملك تأثرهم ونازلهم في معركة انجلت عن اسر بعض العصاة . اما روبرت فنجا ببعض اتباعهِ وفر الى مقاطعة مجاورة يطلب لنفسهِ ملجأً في قلعة احد اعداء ابيهِ . فافعمت هذه الحادثة فؤاد متيلدا همًا وحزنًا اذ رأت انهُ لم يبقَ لدَّ من انتشاب حرب اهلية بين الاب وابنهِ وبينما كانت مقتضيات الواجب ودواعي الحكمة تفرض عليها الانحياز نحو الاب قامت في قلبها بواعث المحبة الوالدية تتغلب على تلك المقتضيات والدواعي وتميل بها بقوة لا تقاوم نحو ابنها اما روبرت فاخذ يجمع اليهِ في ملجاهِ جميع اهل المطامع الطامعين الطائشين من سائر انحاء المملكة ويعمل على نكاية ابيهِ وتعكير كاس راحتهِ وفي غضون ذلك كانت امهُ قائمة مقام المحامي في وجه ابيهِ وملازمة مواصلتهِ سرًا بكل ما يجد ويحدث من الاخبار ويبدو لها من المشورات وبتيسر لديها من الاعانات حتى كانت ولا ريب مرتكبة في ذلك جريمة فظيعة — جريمة المؤامرة ومواصلة الاخبار مع العصاة . وقد كان لتصرفها هذا وجه من

الحق وقد نتج عنهُ شيءٌ من الفائدة لانها سعت جهدها في اصلاح ذات البين بين الاب وابنهِ فبهذه الواسطة خففت نوعًا ثقل وطأة تلك المخاصمة . ومعلوم ان الفوز في حرب اهلية كهذه كان نيلهُ مضمونًا للملك . فوليم كان مالكًا — تحيذًا لجميع ما في المملكة من القوى من الجيوش والمدن والقلاع والاموال اما روبرت فلم يكن لديهِ سوى عصابةٍ مؤلفة من شبان متوحشين طائشين خاملين ثائرين بلا سلطة وبلا مال وبلا اقل وجهٍ من الحق في الثورة والعصيان حتى انهُ جعل من تلقاء نفسهِ يقتنع بالتدريج بعدم فائدة هذا العتو والتمرد . ومتيلدا ذاتها اذ ادركت صيرورة هذه الثورة الى التلاشي والانحلال شرعت تجاهر بزيادة في تسديد مساعيها نحو اخمادها بالكلية واخيرًا نجحت في حمل روبرت على ترك السلاح ودعوتهِ الى مقابلة ابيهِ رجاء استئصال مواد الخصام وتاصيل جذوع الصلح والسلام

على انهُ ما لبث ان ظهر من خلال هذه المقابلة أن لا سبيل للحصول على مصالحة وثيقة العرى وسلم وحيدة الاركان لانهُ مع انتهاك قوى كلا الاب والابن في تلك الحرب الاهلية التي بها صلى كل منهما الاخر فمحبة الذات والمطامع الشخصية التي بنيت عليها تلك المخاصمات ظلت في كل منهما هي اياها بدون ادنى تحول فان روبرت جعل فاتحة حديثهِ تقاضي ابيهِ وعده لهُ بحكومة نورمندي اما ابوه فاجابهُ على ذلك موبخًا اياه بصرامة على عصيانهِ الردي وانذاره بتوقع نصيب ابشالوم الذي حذا روبرت حذوهُ في هذا التمرد فرد عليهِ روبرت بقولهِ انهُ لم ينوِ مقابلة ابيهِ بقصد استماع موعظة منهُ لانهُ كان قد نال كفايتهُ من استماع العظات عندما كان صبيًا يدرس قواعد اللغة فغايتهُ ما يريده من الان هو الانصاف لا الوعظ اما الملك فقال انهُ لا يرضى مطلقًا ان يقاسم احدًا املاكه وهو بعد حيٌّ وزاد على ذلك قائلاً بانهُ وان كان روبرت قد ذكر المواعظ بمعرض الهزء والازدراء فالانجيل المقدس يقول كل بيت ينقسم على ذاتهِ لا يثبت ثم استطرق الى تانيب ابنهِ وتقريعهِ بشدة على خيانتهِ كاحد الرعية وعلى حقوقهِ وعدم بره كابنٍ وقال انهُ مما لا يحتمل ان يكون الابن اشد مقاوم واكبر عدو لابيهِ في حالة كونهِ مديونًا لهُ ليس فقط في كلما يتمتع بنوالهِ منهُ بل في امر وجودهِ ايضًا

وقد لفظ وليم كل هذه التوبيخات على طريق الغيظ والغضب ونطق بها بلسان الوعيد والتهديد وعوضًا عن انها تؤثر في روبرت شعورًا بخطاءه بحدوهِ على التوبة والندامة ضاعفت فيهِ روح العناد والعصيان ولم ياتِ توبيخ ابيهِ على حقوقهِ وكفره بالحقوق الوالدية

بادئ جدوى فخرج من لدنه بغتة والغيظ حشو حشائه والشتائم ملء فيه· وفي قلبه من نار السخائم والضغائن ما فيه. وعوّل مرة ثانية على مهاجرة البلاد رغماً عن كلا التحنة والدنه متهلدا من الوسائل والوسائط في منعه قائلاً انهُ بالاحرى يفضل ان يكون من الجالية التائهين بلا ماوى في بلاد غريبة على بقاءه في قصر ابيه معاملاً بالقساوة ممن كان يتوقع الاخلاص والصداقة بداعي الحقوق والواجبات وإذ لم تقوى والدته ان تثنيه عن عزمه هذا دعا اليه بعض الطاربين من رفقاءه وضرب بهم نحو الشمال مجتازًا نورمندي يفتش على ملجاء عند خاله امير فلندرس فاستقبلهُ هذا بكل اعزاز وترحاب اولاً اكرامًا لاخته وثانياً نكاية بالملك وليم جاره القوي البطاش الذي كان (امير فلندرس) يحسده على رفعة شانه وعظمة مجده. وسعة نطاق توفيقه وحسن طالع سعده·

وإذ كان روبرت عاجزًا عن تجديد الحرب مع ابيه مجرّدًا عن القوى والوسائط انشأ يراسل جميع امراء نورمندي واشرافها الذين رأى فيهم الارتياح الى ذلك ويحثهم على القيام معهُ سرًّا ضد ابيه فلبي اولئك دعوته وانشأ وا آسبابًا سريًا سدًّا لحاجاته على وعد انهُ يعوض عليهم بالمنح والهدايا وحسن المجازات بعد اذ يتمكن من نيل حقوقه المطلوبة من ابيه · ولم ينفعل في الوقت ذاته عن مراسلة امه متيلدا واستمداد بعض الاحتياجات منها ولكن كل ذلك كان سرًّا ايضاً بغاية التحرس والاحتياط . وقد توفق لاكتساب صداقة غير الذين مالاوه في نورمندي فان فيليب ملك فرنسا ذاته كان مسرورًا جدًّا بشبوب نيران هذا الخصام في عائلة جاره الذي بعدما كان خاضعًا لسلطانه اصبح بغلبته على انكلترا مزاحمهُ الاكبر ومناظره الاسبق في مضمار السؤدد والابهة وكان من اشهى الامور لديه استماع ما يبعث على خسوف مجد وليم وتقلص ظل سلطانه وينذر بانقسام قوته وتفرق شمل كلمته ولذا نشر من قبله سعاة وسفراء في جميع انحاء نورمندي وسائر اطراف فلندرس يشجعون الثائرين ويثبتونهم في القيام على حكومة وليم وقد احترز غاية الاحتراز من ان يعدهم جهرًا بالمساعدة على انهُ سعى سرًّا بالف واسطة مكتومة في تنشيط روبرت وتحريضه وحمله على توقع العون منهُ وهكذا كنت ترى الثورة يتسع خرقها ويمتد نطاقها وهي باقية محصورة ضمن حدود القوة لا تتعداها الى الفعل وكان السر في ذلك خلوّ روبرت من الوسائط الفعالة وتعريه من القوى العقلية الضرورية في الاقدام على عمل خطير كهذا فمرت الايام وانقضت الشهور بدون ادنى مجاهرة في العصيان حتى ان مشايعي روبرت في نورمندي داخلهم الخوف واستولى عليهم الياس فانقطعوا عن جمع

الاكتئاب وابتدأ ولي شيئاً فشيئاً يمسون قائدهم الغائب الخامل . اما روبرت فقضى وقتهُ بارتكاب المعاصي واجتراح المآثم وانفاق ما ارسلهُ اليهِ اتباعه على الانبعاث في اوحال السكر والارتطام بحماة الفواحش واوشك عندما فرغت يداه من المال ونضب حوض معداتهِ ان يهيم على وجههِ منذوفاً بتيار القنوط والضيق . لولم يدم لهُ صديق واحد واي صديق . صديق عطف عليهِ . ومال اليهِ . وقشع ديجور الياس عن عينيهِ . وذلك الصديق كان امه . نصيرته في كل ملمة

وقد علمت متيلدا جيداً ان كل ما تصنعهُ لابنها الغائب ينبغي ان يصنع بمزيد الدقة والحرص بحيث لا يتجاوز دائرة الغموض والخفاء وذلك اقتضى لها لامزيد عليهِ من الاحتيال والدهاء . وقد ساعدها عليهِ تغيب زوجها فانهُ كان في هذا الوقت قد مضى الى انكلترا مدعوًّا بالحاح شديد للنظر في بعض المسائل العمومية وعهد نظارة الحكومة في نورمندي الى وزير استحهلت متيلدا مراقبتهُ ورات انهُ لا يصعب عليها مواصلة ابنها في ايام نظارتهِ فامدت روبرت في فلندرس بما لديها من المال ثم صارت تليهِ بالمعين لها وكلما ارسلت لهُ بزيادة كان بمقدار ذالك يكرر الطلب و يلح في استدعاء اعانات جديدة ومعلوم أنَّ ثروة الام سواء كثرت ام قلت لا تكفي لسد عوز ابن مسرف بطال فلما فرغت جعبة دراهمها باعت جواهرها ثم ملابسها الفاخرة واخيرًا الاشياء الثمينة المختصة بها او بزوجها وكل ذلك بطريقة سرية جداً فالوزير المعهودة اليهِ نظارة الحكومة اذ كان امينًا وساهرًا على رعاية ما عهد اليهِ لحظ ان اموراً سرية تجري في البلاط الملوكي وذلك استدعى ارتيابهُ واشتباههُ . وهذان استلزما مراقبتهِ وانتباههِ فعلق يجوس حركات متيلدا و يترصد اعمالها وفي الحال اكتشف على الحقيقة وارسل يعلم وليم بذلك اما وليم فصعب عليهِ تصديق ما قرَّره لهُ الوزير ولذا عزم في الحال ان يتخذ جميع الوسائط الكافلة لهُ تحقيق الامر فرجع الى نورمندي وهناك اتفق لهُ في طريقهِ ان يقبض على احد رسل متيلدا بينما كان ذاهبًا الى فلندرس يحمل الى روبرت مالاً ورسائل وكان اسمهُ سمبسون فاخذ منهُ وليم الدراهم والرسائل وارسلهُ ليسجن في احدى القلاع وبعد اذ وقع على البينات الكافية الناطقة بجريمة متيلدا انطلق مفعماً حيرة وغيظًا يطلب مشاهدتها لينيلها ما تستحقهُ من التوبيخ على فعلها هذا الاثيم الذي اقل ما فيهِ الغدر بزوجها وتسليمهِ . وقد وقع عليها لومهُ مرًّا وحداً وان كان قد عبر عنهُ باسلوب رفيق ونطق بهِ بصوت يشف بهِ عن الحزن اكثر منهُ عن الغضب فانهُ قال لها « لا ارتاب في اني كنت لك على المدى زوجًا امينًا مخلصًا ولست

اعلم ماذا [illegible] فوق ما فعلته لك فقد احببتك حبـًا صادقًا صحيحًا وبذلت قدامك ما يعذر [illegible] صفة من الاعزاز والاكرام فرفعتك الى اسمى رتبة واعلى مقام واتكلت عليك غير مرة في [illegible] شاركني في الحكم وادارة شؤون المملكة ووثقت بك فاستودعتك اهم ما تحت سلطتي والان هذا هو جزائي فانك استعملت نفس المركز والقوة والوسائط التي اقامك عا [illegible] زوجك الامين الة لتسليمه باقبح الطرق ووسيلة لمساعدة وتقوية الد اعدائه واشدهم»

فلم تجب متيلدا بشيء على توبيخه سوى احتجاجها عن ولدها واعتذارها بانة فعلت ذلك اصغاء لصوت المحبة الوالدية الذي لم يمكنها سد اذنيهـا دونة فقالت لة ولم يسعني احتمال ترك روبرت يعاني الضيق والالم على حين استطيع انقاذهُ فهو ولدي ودائمًا افتكر به واني لاحبة اكثر من نفسي وهوذا الان اصرح على مرأى ومسمع منك بانة لومات وامكنني ارجاعة الى الحياة بان اموت لاجلهِ لفعلت ذلك بكل فرح وسرور فاذًا كيف تتوهم انة يمكني ان اعيش هنا على السعة والرحب واتقلب على بساط الرخاء والرغد بينما هو يجول من مكان الى اخر في غاية الضنك ولا اجتهد في اعانتهِ فسواءٌ كان يحق لي ان اشعر هكذا او لا لست اعلم انما هذا اعلم وهو انة ينبغي لي ان اشعر هكذا فما احتيالي هو ابننا البكر ولا استطيع ان اهجرهُ »

فخرج وليم من حضرتها يتضرم غيظًا وكدرًا غير قادر ان يفعل معها شيئًا سوى التوبيخ لكنة عوّل على معاقبة الرسول سمبسون معاقبة شديدة فاصدر امرًا الى القلعة حيث كان مسجونًا بان تقلع عيناه فبلغ ذلك متيلدا وفي الحال ارسلت لة نذيرًا فلم يعتم ان هرب الى دير كان تحت حمايتها وعنايتها ومعلوم ان الادبرة في ذلك العهد كانت كمدن الملجاء في ايام الاسرائيليين حرمًا لا يجسر احد ايًا كان ان يطارد فريسنة الى داخلها اما رئيس ذلك الدير فلكي يضمن حماية سمبسون اشار عليهِ ان يترهب وهذا اذ كان راضيًا ان يفعل بسرور كلما يكفل لة سلامة حياتهِ حلق في الحال وقص شعره ولبس الحلة الرهبانية ووقف حياتة على تلك الخدمة متعهدًا بوفاء نذورها متبعًا طريقة اخوانهِ الرهبان في ما يتعلق بالاصوام والتقشفات وعندها تركهُ وليم يمارس خدمتة بسلام.

وبعد اكتشاف هذه المواصلاة بين الابن والام صارت الامور الى حال اردا بعد ما كان ينتظر لها اطراد مجرى التحسين فان كثيرين داخل نورمندي وخارجها مالوا الى جانب روبرت حتى الف حزبة جيشًا كبيرًا وعقدوا لواء قيادتهِ لة وخرجوا بهِ

لمهاجمة مدينة روان . فاوجس الملك من ذلك خوفًا عظيماً وجمع كل ما وقت ... للدفاع
من القوات وانطلق لمحاربة ابنه العاصي الثائر ورفقته ابنه وليم روفوس وجلس متيلدا
ضمن قصرها مثقلة بآلام الخوف والحزن وفي حالة كحالة كل ام وزوجة يتصل ا خبر
معركة دموية بين ابنها وزوجها فكان مجرّد افتكارها فقط بان احدها قد قتل ...
كافيًا لان يطبق عليها بظلام الحزن الابدي . وبالحقيقة ان ما توقعته متيلدا من الخطر
كان على الابواب فان روبرت لم يستطع في قلعة ليفل الوصول الى اخيه والفتك به ... ا
الان فقد تمكن من ابيه في سهل ارشمبري حيث حدثت هذه المعركة وطعنة طعنة كانت ...
لولا قليل صرعته قتيلاً وتفصيل ذلك انه بينما كان الفرسان يجولون في معمعة القتال
يضايقون بعضهم بعضاً وهم غارقون بعددهم الحربية لا يتبين الواحد منهم وجه الاخر
الواقف امامه اذا بروبرت قد التقى بفارس طويل النجاد عظيم الجثة فصوّب سنان
رمحه نحوه وطعنه في ذراعه فسقط على الارض يئن من شدة الالم ومن صوته عرفه روبرت
انه ابوهُ كما ان وليم عرف ايضاً ان عدوه الذي طعنه كان ابنه فانبرى يفرغ عليه كنانة
السخط والغضب ويلعنه باعظم اللعنات وعندها ترجل روبرت مذعورًا وخر على
الارض بجانب ابيه صارخًا مستغيثًا . فاشاح وليم عنه . وابى قبول ادنى مساعدة منه

ولم ينحصر مصاب وليم وقتئذٍ بسقوطه عن جواده وتاثره من جرحه البليغ بل زاد
على ذلك تقهقر رجاله وانتصار قوم روبرت حتى ان وليم روفوس جرح ايضاً كأبيه ولا
تسل عن حالة متيلدا وقتئذٍ فانها باتت غرقى في بحار الهموم تتقاذفها تيارات الكآبة
والحزن حتى لم يعد في وسعها ان تتكبد روية هذه المخاصمات المريعة فتوسلت الى زوجها
بحرارة ودموع غزيرة ان يجد طريقة لحسم هذه المنازعة التي لاجلها قضت الليالي سهرًا
وصرفت الايام نائحة باكية حتى عبثت بصحتها وقوتها ايدي النحول والخوار . ومالت
بظلها الى التقلص والانحلال واصبحت ضئيلةً نحيلةً صفراء كالخيال . بحيث صار يتراءى
للناظر اليها انه اذا طالت مدة وطأة هذا المصاب عليها . تذوب بنار حزنها وقهرها
وتنحدر بقوة ياسها الى قبرها

على ان وليم استجاب توسلاتها وارسل فدعا ابنه وبعد مداولات ومباحثات عقدت
بينهما صلات الصلح والسلام . وانقطعت اسباب النزاع والخصام . وعاد وليم وروبرت
الى صداقة وطيدة البنيان وتحاب شديد الالتحام . وبعد ذلك بقليل سافر وليم لانكلترا
لانشاء قوة عسكرية في شماليها فاستصحب روبرت معه الى تلك الاقطار . كاحد قواده الكبار

الفصل الثاني عشر

الخاتمة

٣ مضى على الملك وليم نحو عشرين سنة من معركة هستن سنة ١٠٦٦ الى وقت موتهِ سنة ٨٧ . اقضاها ملكاً مرهوب الجانب مؤيد السلطة مرفوع المنار في جميع جهات المملكة وان كان لم يخلُ لهُ فيها جوّ السيادة من أكدار المخاطر والمصاعب والمناوشات المتعددة وكان قد استصحب معهُ من نورمندي الى انكلترا عدداً كثيراً من النورمند والقى اليهم مقاليد القوة العسكرية والملكية وقد اعتمد على حذقهِ ودرايتهِ في كيفية ادارة الشؤون وتخليص رئاسة السلطة اليهِ وقد شحن جهدهُ في اقناع الامة الانكليزية بالمبداء الخصوصي الذي بموجبهِ تسلط على انكلترا وهو انهُ كان الوارث الشرعي للعرش وان مبعث سلطانهِ الجوهري هو حق السيادة وليس حق الغلبة وذلك باجماع الشعب الانكليزي وبالواقع كان قسم عظيم من الانكليز يعتقد ان حق تملك وليم فوق حق هارلود على انهُ اذا كان وليم غريباً مولداً وتهذيباً ولغةً وكل حاشيتهِ واتباعهِ المقربين اليهِ بل كل الجيش وسائر قادة الحملة المعتمد عليهم في حفظ السلطة كانوا غرباء ايضاً — بملابس غريبة واطوار غريبة ولهجة غريبة كان السواد الاعظم من الانكليز يرون نفوسهم خاضعين لنوع غريب من السلطان ولاجل ذلك كثيراً ما جرت بينهم وبين النورمند المتسلطين عليهم معارك دموية هائلة طمعاً في كسر نيرهم والانعتاق من عبوديتهم فاصلوا نار ثورةٍ كانت لا تخمد من جهةٍ حتى تكون انشبت من جهةٍ اخرى وبذلك كان وليم لا يقر لهُ قرار ولا يفرغ من تجريد القوات على انهُ هو لم يكن رجل حربٍ فقط بل كان حاذقاً محنكاً و بصيراً بعواقب الامور فلم يفتهُ ان استمرار ملكهِ ورسوخ قدمهِ وقدم خلفائهِ في انكلترا موقوف على الاساس الذي تبنى عليهِ قوانين البلاد المدنية وعلى النظامات المسنونة للهيئة الحاكمة ولذا لم يغفل عن ملافاة هذا الامر فافرز قسماً عظيماً من وقتهِ انقطع فيهِ للتامل والتدبر وقد اتى في مباشرة ذلك ما لا يسعنا وصفهُ من الحذاقة والتثبت والاصالة . وبالحقيقة ان همتهُ كانت ارفع مما يستطيع الوهم ادراكهُ كيف لا وقد رشحتهُ لاقتحام امر خطير جلل

والاقدام على عمل شاق كان يتهيبهُ هرقل . فانهُ كان عليهِ ان يوفق بين ثقته ... ويضوغ من لغتين لغة واحدة ولو انهُ حينما سمع عن تملك هارلود وهو في ظاهر ... بوجود حزب قوي في انكلترا يميل اليهِ و يلبي دعوتهُ وحدهُ او مصحوبًا بنفر قليل ... و يحقق ثقتهُ بالانكليز فيعتمد عليهم لاستطاع تجنب الاخطار التي كان ... على مصادمتها لكنهُ لم يكن من حزب كهذا هناك بل لم يكن لهُ على الاقل ادنى ثقة برجل ... احد ذي قوة كافية تخولهُ اعتمادها والاتكال عليها وتراءى لهُ حينئذٍ انهُ اذا اقدم على هذه ... يجب عليهِ ان يحصر اتكالهِ على القوة التي يقوى على تجهيزها من نورمندي . ولكي يحقق اتكالهُ هذا ترتب عليهِ ان يجعل تلك القوة منيعة الجانب عظيمة الشان ثم ان النورمند الذين اجابوهُ على دعوتهِ وشدُّوا ازره ومكنوهُ من التغلب على انكلترا كانوا كثيري العدد وكلهم يستحقون المجازاة بالتي هي احسن ولا يمكن تحصيل الجوائز لعددٍ كثير كهذا الا من ذات انكلترا على طريق سلب اهلها وضبط ارزاقهم اذ ان ما لوليم في نورمندي اقل من ان يفي بالمقصود . ورأى ايضًا انهُ اذا اقام نخبةً من النورمند على ادارة الاعمال العظيمة في انكلترا مملكتهِ الجديدة وعهد اليهم بالوظائف العالية وجعلهم مبدأ الثقة في الرأي ومرجع الاتكال في الامر والنهي فانهم يكونون حينئذٍ على نوع ما صفًا ممتازًا فينظر اليهم الانكليز بعين الغيرة والحسد ومن ثم فلا يامل ثبوتهم في مراكزهم ما لم يكونوا كثيري العدد شديدي القوة فاتضح لديهِ والحالة هذه ان كان الاجدر بهِ لو امكنهُ ان لا يحضر معهُ واحدًا منهم واما الان وقد سبق السيف العذل فصار من الحكمة ان يخلي زرعهُ في تكثير عددهم وتوسيع نطاق نفوذهم ولذا عوَّل على نورمندية انكلترا اي ان يجعلها كنورمندي في كل شيء تقريبًا فاخذ يمد رواق اللغة النورمندية و يشيع استعمالها في ألسنة جميع السكان ويحتم بتعميم التكلم بها والتعامل في سائر الاشغال حتى ان سنَّ بها الشرائع وسجّل الاحصاءات واجرى القيود في مطلق الاشغال بحروفها ولا يزال الانكليز مطعمين بها الى هذا اليوم

وقد استغرق امتزاج الانكليز بالشعب النورمندي وسكب لغتي الامتين في قالبٍ واحدٍ نحوًا من جيل حتى اذا تمَّ ذلك اخذ الانكليز يرتابون فيما اذا كان تغلب وليم على انكلترا يقضي لهم بالافتخار او يحكم عليهم بالذل والانخذال وذلك لانهُ قد انطمست في وجوههم معالم اصلهم فلم يعودوا يعرفون بالتحقيق أمن النورمند هم فيفتخروا ببسالة اسلافهم واعمالهم المجيدة ام من سلالة الانكليز فينوحوا او يبكوا على انكسار شوكة اباءهم وخسوف قمر مجدهم الخالي ومعلوم انهُ لم يكن ليتبين لهم وجه تخلص من هذه الحيرة ولا اهتدوا الى سبيل حل هذا

المشكل التي لا يزال مغلقًا على الانكليز المتناسلين منهم الى وقتنا هذا . ومن جملة الاعمال العظيمة التي اتاها وليم في انكلترا ولا تزال مأثورة عنه الى الان هو انه امر بعد كل نفوس المملكة واحصاء كل وطني متملك فيها وذلك كان سنة ١٠٧٨ ولا يبرح المجلدان اللذان تضمنا هذا الاحصاء باللغة اللاتينية محفوظين بمزيد الاعتناء الى هذا اليوم وهما مختلفان في الحجم ولهما عظيم اعتبار بالنظر الى المسائل المتعلقة بحقوق الاملاك القديمة . وفي نحو سنة ١٠٨٣ اخذت قوى الملكة متيلدا تنحط بداعي ما الم بها من المشاغل والهموم ولاسيما فيما يتعلق بعائلتها وذلك صغر نفسها ان لم نقل اسرع بها نحو شفير الانسكاب والانحلال وكانت في هذا الوقت في نورمندي وكان من اكبر بواعث قلقها واضطرابها انشغالها باحدى بناتها التي كانت نظيرها اليفة السقم والمرض فعوّلت على الحج الى دير مذخورة فيه بقايا احد القديسين متوهمة انها تنيل ابنتها ابلالاً وشفاء فقدمت على تلك البقايا تقادم ثمينة مصحوبةً بصلوات حارة وتضرعات ممزوجة بدموع الحزن الشديد واستشفاعات مقرونة بالتذلل والرجاء والايمان ولكن كل ذلك لم يجدها نفعًا بل ظلت ابنتها المحبوبة تعاني الالم حتى قضي عليها وعندها انقطعت متيلدا الى قلعة كاين وهناك اغلقت على نفسها اسيرة الغم والكرب . وفريسة انكسار النفس وانخلاع القلب . وكان وليم كما يذكر القارئ قد بنى لها داخل هذه القلعة ديرًا في وقت اقترانه بمتيلدا التي حدا بها حادي التذكار على الرجوع بناقة افكارها الى ذلك العهد ايام كانت شموس آمالها مشرقة في سماء العظمة والمجد والسعادة فايقظ فيها الذكر سواكن الشوق والحنين . وغادرها الحزن على حؤول تلك الايام قرينة التنهد والانين . نعم ان نور عظمتها ومجدها كان لا يزال مشرقًا وبمقدار عشرة اضعاف ما صوّرهُ لها التذكار ولكن نجم سعادتها غار ولم يعد لها الى استطلاعه سبيل وكان داء الطمع قد دبّ الى اعضاء كل عائلتها واستفحل فيها مدة عشرين سنة يصارع المحبة الاهلية ويكدر كاس السلام العائلي حتى غشي سماء ايامها الاخيرة سحب مرارة انشأت من رياح المخاصمات بين زوجها وابنها . فطفقت ترتاد السلام وتنتجع الراحة على طريق الفروض الدينية فصامت وصلت وتوسلت بدموع غزيرة طالبةً غفران خطاياها وازدحمت اقدام الكهنة حول فراشها يقيمون الصلاة ويصعدون التقدمات ويلتمسون الغفرانات متوسلين مستشفعين وكان وليم حينئذٍ في نورمندي فبلغهُ خبر تهورها الى اعمق دركات الياس فجاء اليها ووصل في ساعة نزعها

وبعدما تنفست النفس الاخير احتفل بجنازتها ونقلت جثتها من قلعة كاين الى الدير

الذي كانت قد بنتهُ لنفسها وهناك قوبلت بملء التجلة والاحترام ودفنت بمزيد الاجلال والاكرام . وقد بقي لها بعد ذلك بقايا اعمال كثيرة تشهد لها على ممر السنين بالعظمة ورفعة الشان من نحو تصوير وتطريز وافعال خيرية وآثار تاريخية تطاولت عليها يد الزمان بالتدريج فطمست معالمها من عالم الوجود . وجرَّت عليها اذيال المحو والخمود . على انهُ رغماً عن عاديات الايام وصروف الليالي لاتزال منها بقية ذكر وتقليد . تدلُّ السياح الى تلك الاطراف على عصر متيلدا المجيد السعيد . وتنازع الزمان حياة البقاء والتخليد

ثم ان وليم ذاتهُ لم يعمر طويلاً بعد وفاة متيلدا فانهُ كان اكبر منها سنًّا وقد اصبح الآن شيخًا متقدماً في الايام ومثقلاً بعمر الشيخوخة وقد زادهُ عجزًا في اواخر حياتهِ كبر جثتهِ التي رزح اخيرًا تحت ضغطة حملها ولم يعد يستطيع حراكًا وقد فارقهُ نشاط الشباب وعداه كل ما كان يتعلق بالشبيبة من بواعث التنشيط والترويح فصار اقل شيء يعرض لهُ يقلق راحتهُ ويبعثهُ على الاضطراب وقبل وفاتهِ بسنة جدد معهُ ابنهُ روبرت القتال واضطرهُ على مبارحة انكلترا الى نورمندي لاجل اطفاء نيران الثورة التي اشعلها ضده على ان روبرت هذه المرة كان مستندًا على مساعدة فيليب ملك فرنسا حسود وليم الخصوصي المستدم ولا يذهب من ذهن المطالع ان الملك فيليب كان حينما استشاره وليم بالحمل على انكلترا فتى حديث السن واما الان فقد اصبح رجلاً في ريعان القوة وغلواء الشجاعة فنشط للاخذ بناصر روبرت واغراه على شق عصا الطاعة لابيهِ الشيخ . اما وليم فلما جاء الى نورمندي جعل يعرض نفسهُ على الاطباء ويسعى في معالجة ما بهِ من السقم تعللاً بالشفاء . وذلك فرض عليهِ ملازمة القصر وعدم مبارحة غرفتهِ الخاصة فبلغ الملك فيليب ما كان عليهِ الملك وليم فاخذ يسخر بهِ حتى انهُ سال يومًا رجلاً جاء حديثًا من نورمندي «الا تزال عجوز انكلترا منزوية في غرفتها ؟» وهذه الكلمات اتصلت بوليم على طريق التداول فاغتاظ غيظًا لا مزيد عليهِ وهاجت بهِ الثار نار الانتقام رغماً عن تاثره بالمرض فاقسم بعظمة الله انهُ لا بد بعد معافاتهِ من الخروج على الملك فيليب واشعال نار الخراب في سائر اطراف مملكتهِ . وقد وفى بقسمهِ — باشعال النيران فقط — ولكن عوضًا عن تدميرها مملكة فيليب صارت بالاتفاق واسطة لشل يد الذي اشعلها . وكان تفصيل هذه الحادثة الاخيرة من تاريخ هذا الظافر العظيم كما يلي

حينما أبلَّ وليم وصار قادرًا على الركوب امتطى ظهر جواده وحمل بجيشهِ على ممالك

فيليب فاجتاز فخم نورمندي وضرب في عرض الجنوب حتى بلغ اواسط فرنسا مدمرًا في طريقهِ البلاد بحد السيف ولسان النار حتى جاء بلدة صغيرة تدعى مانتس وهي على نهر السين على طريقهِ الى باريس فهجم عليها رجالهُ ونهبوها واحرقوا ابنيتها وبعد ما اكملوا كل ذلك تأثرهم بالدخول اليها ليشاهد بعينيهِ انجاز ما اقسم بوعد الملك فيليب وفيما هو يجتاز البوابة متهاديًا على ظهر جوادهِ بسورة النصر والظفر وحده غير مصحوب بحرس جاء في طريقهِ الى حيث كانت بعض القطع الخشبية الغليظة الساقطة من بيت محروق ملقاةً على الارض وقد غشيها رماد كثيف ستر ما تحتها من النار المحرقة فبين هو يسير نشوان براح العجب والافتخار اجفل جوادهُ بغتةً ونكص الى الوراء ومن تشويط يديهِ واحتراقهما بالنار التي طفر عليها بدون انتباه

فاندفع وليم بعنف على موخر السرج وبالجهد استطاع ان يقي نفسهُ من السقوط على انهُ اوجس تفاقم الخطب عليهِ فترجل وبادر البعض الى مساعدتهِ فرأوهُ ضعيفًا خائر القوى فحمل بجماعة من الرجال الاشداء يعبدون نقلهُ الى روان وهناك احضروا لهُ امهر اطباء نورمندي وبعد الفحص حكموا جميعهم انهُ مائت لا محالة فاغرقهُ كلامهم هذا في وهدة الياس واطبق عليهِ تحت لجج الكآبة والحزن وعندما تذكر ما اتاهُ في حياتهِ من الاعمال القاسية والافعال المنكرة المقرونة بالطمع وحب الذات وهالهُ التذكر انهُ عما قليل يفارق الحياة ويقف امام الله للدينونة عن كل هذه الجرائم التي تعد بالالوف فصرخ الى الله بحرارة طالبًا المغفرة وجمع حولهُ الرهبان وسالهم ان يساعدوهُ بصلواتهم وامر ان ينفق كل ما لديهِ من الدراهم على الفقراء واصدر بلاغًا اخر لاجل بناء كل الكنائس المحروقة في بلدة مانتس وترميم ما فيها من البيوت المهدومة وبالاختصار نقول انهُ استعمل كل الوسائط الفعالة في التكفير عن اثامهِ وذنوبهِ . ولم يكن حينئذٍ غائبًا عنهُ من اولاده سوى روبرت فان الصلح بينهما كان قد اصبح متعذرًا ولم يقدم لمفاهدة ابيهِ حتى في ساعة موتهِ اما وليم روفوس وهنري فكانا عنده ملازمين الجلوس بجانب فراشهِ ليس بداعي محبتهما البنوية لهُ بل حرصًا على وجودهما ساعة نطقهِ بالوصية الاخيرة بشان املاكهِ لانها وان تكن شفاهية فلها اعتبار الكتابية وقد انجز فيها وعده لابنهِ الاكبر روبرت بخصوص امارة نورمندي اذ قال « قد وعدتهُ وسافي بوعدي . على اني لا اجهل ان البلاد التي يتسلط عليها تكون من اشقى البلدان اذ انهُ متكبر احمق ولا يمكن ان ينجح » ثم زاد على ذلك « واما من جهة مملكتي في انكلترا فلست اعطيها لاحد لانها لم تعطَ لي من احد بل قد تملكتها بالقوة بثمن دم وسائركما

في يدي الله آملاً ان ابني وليم روفوس يحوزها لانهُ كان طوعاً لي في كل شيء» وعندها سالهُ ابنهُ هنري بلجاجة «وانا ماذا تعطيني يا ابي؟» فاجابهُ «خمسة الاف ليرة من صندوقي» فقال هنري «وماذا اصنع بالخمسة الاف ليرة اذا لم تعطيني بيتاً ولا ارضاً؟» فاجابهُ الملك «كفَّ يا بنيَّ واتكل على الله . دع اخويك يتقدمانك واما نوبتك فتكون بعدهما» ولما قضى هذان وطرهما من الجلوس بجانب ابيهما خرجا من لدنهِ فذهب هنري لاجل تحصيل ما عين لهُ من الدراهم وركب وليم روفوس البحر الى انكلترا يعدُّ لنفسهِ طريق الجلوس على عرشها حين يقضي ابوهُ نحبهُ . ثم امر وليم ان ينقلوهُ الى دير في ظاهر روان لان ضوضاء المدينة ازعجتهُ فضلاً عن انهُ راى ان موتهُ في مكان مقدس كهذا خير لهُ وابقى . فنقل بوجب ذلك الى هناك وفي صباح العاشر من شهر ايلول افاق على صوت اجراس المدينة فسال عن السبب فقيل لهُ انها تقرع لاجل اقامة صلاة الصبح في كنيسة السيدة فرفع يديهِ وشخص نحو السماء وقال «ايتها السيدة مريم ام الله الطاهرة استودعك نفسي» واسلم الروح وما اغمض عينيهِ حتى هجرهُ خدامهُ وتفرقوا عنهُ ناهبين كل ما وصلت اليهِ ايديهم في غرفتهِ من الاسلحة والاثاث والملابس والاشياء الثمينة ولم تنحصر فظائعهم في ذلك فقط بل ان قساوتهم البربرية الوحشية حملتهم على مغادرة جثتهِ مطروحةً عاريةً على البلاط حتى دخل راهب الدير ولفها وجاء بالصلبان والشموع والبخور وشرع يقدم الصلوات عن نفس الفقيد ملتمساً لهُ غفراناً ورضواناً ثم ارسل يستعلم من رئيس اساقفة روان عما ينبغي ان يفعل بالجسد فارعز اليهِ ان ينبغي نقلهُ الى كاين ليدفن هناك في الدير الذي بناهُ وليم وقت زيجتهِ وقد روى مورخو ذلك العهد انهُ لم يبقَ من ينقل جسد وليم الى كاين حتى جاء احد الفلاحين ووضعهُ في عجلتهِ وجرها الى النهر وهناك انزلهُ بقارب الى مصب السين ومن ثم نقلها برّاً الى كاين حيث خرج رئيس الدير لملاقاتهِ مصحوباً ببعض الرهبان والسكان وعندها اشتبت نار في البلدة فاسرع جميع الذين كانوا مرافقين جسد وليم الى مكان شبوبها وتركوا الجسد مع حامليهِ فقط وهولاء ظلوا يسيرون بهِ حتى اتوا الكنيسة داخل الدير في القلعة وهناك وضعوهُ وانصرفوا

ولما دنا وقت الجناز اجتمع جمع غفير لمشاهدة الاحتفال وفي نهايتهِ قلعوا بعض الحجارة من ارض الكنيسة وحفروا قبراً وقد اعدوا لاجل تكفين وليم حجراً كبيراً (ناووساً) حفروهُ وانزلوهُ في القبر ليواروا الجثة ضمنهُ وبينما هم على اهبة الدفن اذا برجل قد اقبل عليهم من بين الجمهور واوقفهم قائلاً ان هذه الارض التي بني فيها هذا الدير هي ملكهُ وقد اغتصبهُ

اياها وليم فاضطر ان يسلمها مكرهاً واما الان فهو يحتج ويتظلم ومما قاله «ان الارض لي وملك ابي ولم ابعها ولا وقفتها ولا رهنتها ولا وهبتها فهي حقي وباسم الله امنعكم من دفن جسد مغتصبها فيها» . فاخذه رئيس الدير على انفراد وفحص دعواه واذ وجدها صادقة نقده في الحال ثمن القبر ووعده بدفع ثمن كل الارض فيما بعد فارتضى عندئذٍ ولم يعد يبدي ادنى ممانعة . وفيما هم يحاولون مواراة الجثة في المكان المعدّ لها وجدوا ان الناووس صغير فراموا ان يضغطوها فيه وبينما هم يفعلون ذلك انشق الناووس وتمزقت الجثة واندلقت احشاء الفقيد بداعي الفساد الذي طرأ عليه من طول المدة وانبعثت منه الروائح الكريهة المنتنة فاسرع الرهبان الى حرق البخور ونفث الاطياب ولكن رغماً عن كل ذلك اشتدت كراهة الروائح وتعاظم نتنها في كل الكنيسة حتى ارغم جميع من فيها على الخروج ولم يبقَ سوى الدافنين

اما روبرت ووليم روفوس فبعد محاورات ومصادرات بشان الخلافة تقرر بموجب عهدة بينهما ان وليم روفوس يحكم في انكلترا وروبرت يستأثر بامارة نورمندي .

انتهى



ادارة

المطبعة اللبنانية

في بيروت

بالطابق العلوي من سوق الخواجات رعد وهاني

حبًا بنشر العلوم والمعارف وارضاء لاهل العلم والادب قد نزلت ادارة هذه المطبعة اسعار بعض مطبوعاتها الى درجة مهاودة وهي تطلب في بيروت من مركزها وفي الخارج من وكلاء الصفا الكرام واليك البيان

غروش	
١٢	وقائع تلماك
١٠	تاريخ الرومانيين
٠٦	تاريخ الدولة المكدونية
٥٤	قصة حمزة مجلد ٤
٣٠	رواية متيلدة مجلد ٢
٤٠	السنة الاولى من الصفا مجلدة
٨٠	السنة الثانية "
٨٠	السنة الثالثة "
٠٥	رواية الاختفاء الغريب
٠٦	تراجم اعيان دمشق

غروش	
٠٨	تاريخ روسيا الاول
٠٨	" " ٢
٠٨	" " ٣
٠٨	" " ٤
٠٥	ثلاثة دواوين الشعراء الجاهليين
٠٨	ديوان ابن هاني
٤٠	قصة فيروزشاه
٣٥	رواية الكونت دي كولانج مجلدين
٠٦	تاريخ وليم الظافر
٣٠	الحراس الثلاثة مجلدين

